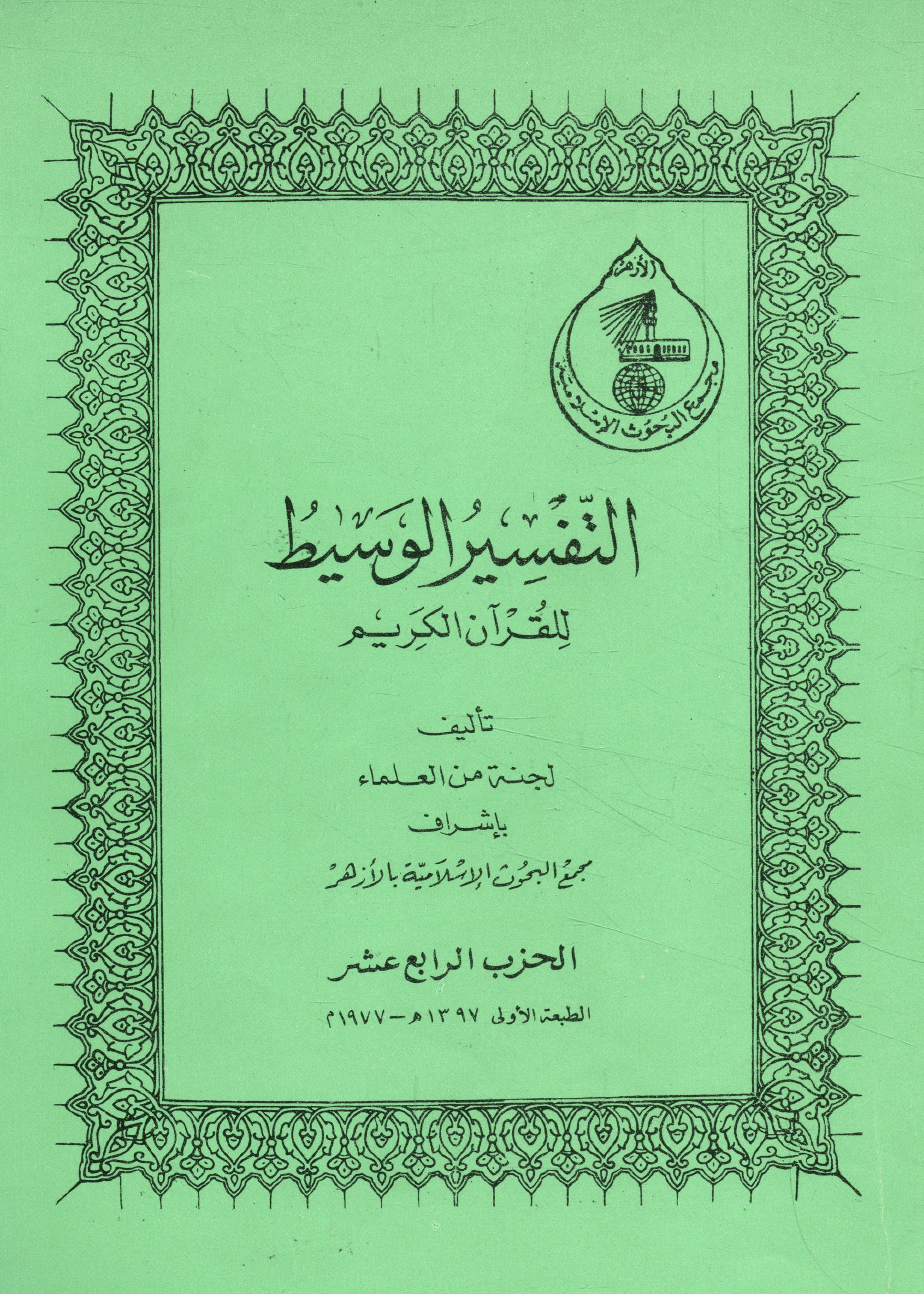


التفسير الوسيط

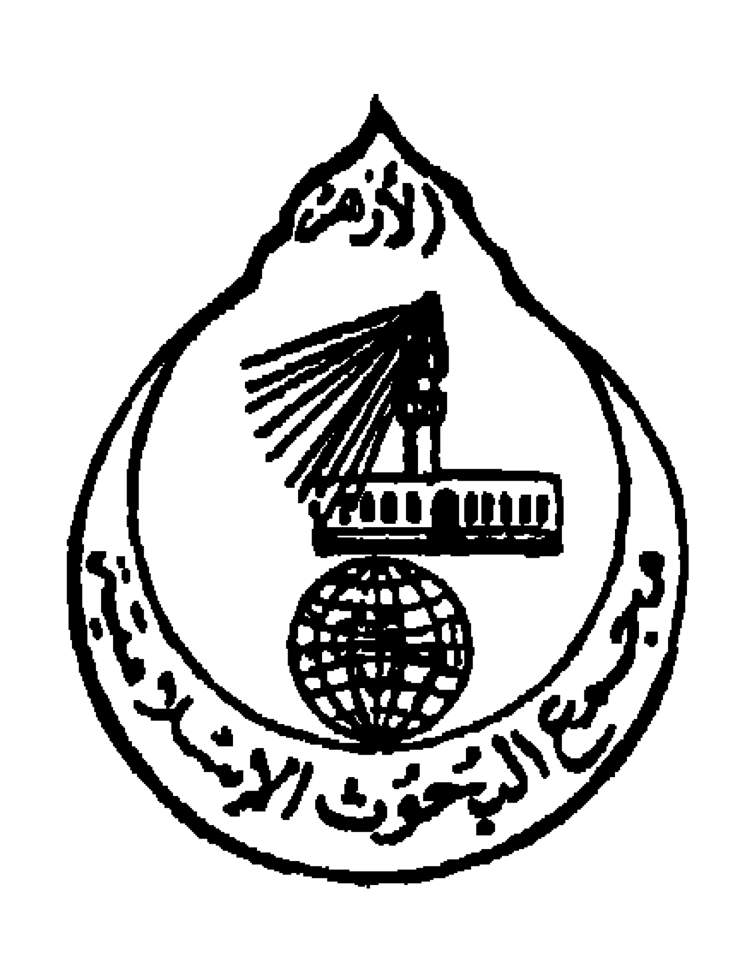
للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الرابع عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الرابع عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)) .

المفردات :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ) : الاستجابة ، هى الإجابة المقارنة للقبول .

(وَالْمَوْتَى) : المراد بهم ، الكفار . تشبيها لهم بالموتى .

التفسير

٣٦ - (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

لمّا بيَّنَ الله - فى الآية السابقة - إعراض المشركين عن الرسول ، وأن إعراضهم كبر عليه صلى الله عليه وسلم ، أتبع ذلك ببيان السرّ فى إعراضهم . وهو شَبَّهَهُم بموتى القبور . وذكر أن هؤلاء المعرضين سيلقَون جزاءهم .

والمقصود من ذلك : تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووعيد الكافرين به .

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) :

المعنى : ما يجيبك يامحمد إلى الهدى ، ويقبل منك شريعة الإسلام ، إلا الأحياء الَّذِينَ يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار .

وهؤلاء المشركون الذين لم يجيبوك ، و لم يهتدوا بهديك ، يُشبهون الموتى ؛ لفقدهم مايميز الأحياء عن الأموات ، من السماع والتدبر .

(وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ) :

الواو للاستئناف وجوبا ولزم الوقف قبلها . والمعنى : والموتى يحييهم الله يوم القيامة .

(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

للحساب والجزاء ، فلا يَشُق عليك إعراضهم وأمرهم إلى الله الذى سيتولى عقابهم حين يبعثهم .

ولا يصح أن يراد من بعث الكفار هدايتهم - كما قيل - فإن ذلك لا يناسب قوله تعالى :

(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

فإن ذلك لوعيدهم بالجزاء على كفرهم . لأن هذا هو الأنسب لتمام الكلام .

وهذه الآية مقررة لما مرَّ فى السورة ، من أن المشركين أمعنوا فى الإعراض إمعانا ، جعل على قلوبهم أغطية مانعة لها من الفهم . وفى آذانهم حجبا تضع فيها وقرا - أى ثقلا - مانعا من السماع .

كما أنها تفيد أن مَن لم يستجب إلى دعوة الإسلام ، فهو من قبيل الموتى - والموتى لايتصور منهم الإيمان .

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾) .

المفردات :

(لَوْلَا) : حرف يدل على الحثِّ والتَّحضيض مِثْل : هلَّا .

(نُزِّلَ) : المقصود من التنزيل ؛ الإظهار .

(آيَةٌ) : الآية ، العلامة ، والمراد بها هنا : معجزة كونية تلجئهم إلى الإيمان . كجعل الصفا ذهبا ... وسنوضح ذلك .

(دَابَّةٍ) : الدابة ؛ مايدب على الأرض ، أى يمشى على هيئته .

(أُمَمٌ) : جمع أمة بمعنى ؛ جماعة .

التفسير

٣٧ـ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ... ﴾ الآية .

لايزال الكلام موصولا فى شأن تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم استجابتهم إلى مادعاهم إليه .

تحكى هذه الفقرة : أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بآية يُنزِّلها الله ويظهرها ، على حسب هواهم ، فقالوا ـ على ألسنة رؤسائهم ـ هَلَّا أُنزل عليه آية من ربه ، تلجئنا إلى الإيمان برسالته ؟ ويعنون بها ماحكته سورة الإسراء : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا »[1] .

والمتأمل فى تلك المطالب وأمثالها ، يحسُّ أن الباعث عليها هو التعنت والعناد ، لا الاهتداء إلى الحق .

فلو كانوا طلاب حق ، لكفاهم ما أيده الله به من معجزة القرآن « ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[2] .

وكما أيده الله بالقرآن ، أيده بكثير من المعجزات الكونية :

كانشقاقِ القمر ، وحَنِين الجذع ، وإنزالِ المطر ، ورَفْعِه ، وتكثير الماء والطعام . إلى غير ذلك ، مما روَته السنَّةُ الصحيحة .

وقد بين الله للرسول صلى الله عليه وسلم ، مايجيب به المشركين بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ :

قل ياأيها الرسول لقومك : إن الله قادر على تحقيق الآية التى طلبتموها ولكن أكثرهم ليس من أهل العلم والعقل ، فلذا غفلوا عن الحكمة فى عدم تحقيق ماسألوا ، وهى أنه تعالى لم يشأْ إهلاكهم ، فإنه إن حققها فكفروا ـ بعدها ـ أُهلِكوا جميعًا كما حدث للأمم قبلهم ...

---

(١) الإسراء ، الآيات : ٩٠ ـ ٩٣ (٢) النساء ، من الآية : ٨٢

ونَفْىُ العلم عن أكثرهم : إمَّا لأَن بعضهم يعلمون الحكمة فى عدم تحقيق ما يقترحون ، ولكنهم يشاركونهم فيما طلبوا عنادا ، وإما لأَن الأَكثر ، مرادٌ منه : الجميع .

٣٨- (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . . .) الآية .

هذه الآية مسوقة للدلالة على كمال قدرة الله وشمول علمه ، وسعة تدبيره وحكمته . حتى تعلم قريش : أن مَن كان هذا شأْنه ، قادر على تحقيق ما طلبوه ، وإن كان لم يجبهم إليه ، رحمةً بهم .

والدابة : ما يدب ويتحرك على وجه الأَرض من الحيوان .

والتعبير بقوله : (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ) : لتأْكيد العموم[1] ؛ كأنه قيل : وما نوع من أنواع الحيوان ، أو الأَسماك - صغيرًا كان أو كبيرًا - فى أية ناحية من نواحى الأَرض - ظاهرها وباطنها - .

(وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) :

ووصف الطائر بأَنه يطير بجناحيه مع أن هذا شأْنه ، لتصوير حالة طيرانه العجيبة الدالة على كمال قدرة الله وإحكام تدبيره . حتى يتجه النظر والفكر إليها . فيمجد الله الذى أبدعها .

والمقصود من قوله : (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) : بيان أن حيوانات الأَرض والبحر ، وطيور الجو ، إنما هى جماعات وطوائف ، لها مثل مالنا من الخصائص فى الجملة .

فالنمل - مثلا - أمَّة أرضية : لها تدبيرها فى السعى على رزقها ، وجمعه فى أجحارها ، استعدادا لفصل الشتاء ، لتقتات به وهى مختبئة فيها طول الفصل . كما أن لها أميرةً منها ، تُوَجِّهُها وتنظم مصالحها . ولها لغة تتفاهم بها . كما يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة النمل : « حَتَّىٰٓ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2] . وقد فهم سليمان عليه السلام لغتها : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا . . . »[3] الآية .

---

(١) العموم مستفاد من كلمة (دابة) وتأكيد العموم مستفاد من زيادة (من) ، ومن كلمة (فى الأرض) .
(٢) النمل ، الآية : ١٨ (٣) النمل ، من الآية : ١٩

النحل : أمَّةٌ جوية . لها رئيسة يطلق عليها لغة : « اليعسوب » وهذه الأميرة تُوَجِّهُ أُمَّتَها من النحل وتدبر أمرها . ولها نظام فى السعى على الرزق ، وبناء بيوت هندسية دقيقة ، تجمع فيها العسل ، وتحتضن البيض ، حتّى تخرج منه صغارها ، ثم ترعاها حتّى تصير نحلا . إلى غير ذلك من شئونها العظيمة الدالة على قوة إدراكها .

ولذا أخبر الله تعالى ، بأنَّها موضع لوحيه وإلهامه فقال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »[١] .

وهكذا ، شأْن سائر الحيوانات الأَرضية والبحرية ، والطيور الجوية .

فالآية فتحت آفاقا من العلم عن أُمم أُخرى : لها خصائص تقرب من خصائصنا . ظلت مجهولة ، حتى عرفها الباحثون أخيرا ، عن طريق التجربة « . . . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[٢] .

(مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ) .

تفريط الشىء . تضييعه وتركه . كما قال الشاعر .

معه سقاءٌ لايفرط حمله *

والتفريط فيه : أن يهمل ما ينبغى أن يكون فيه .

والمعنى : ما أهملنا فيه شيئا ينبغى ذكره فيه .

والمراد من الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو القرآن الكريم .

وعلى الأَول ، تكون جملة . (مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ) متوسطة[٣] للإيذان بأَن كل الأَحوال مستقصاة فى اللوح المحفوظ ، غير مقصورة على هذا القدر المجمل .

وعلى الوجه الثانى . تكون الجملة متوسطة ، لتقرير ماقبلها على معنى : ما تركنا فى القرآن شيئا من الأَشياءِ الهامة فى الدنيا والدين . ومن جملتها : بيان أنه تعالى ، مراعٍ لصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى .

---

(١) النحل ، الآية : ٦٨ (٢) المؤمنون ، من الآية . ١٤

(٣) يعبر عنها المفسرون ؛ بأنها جملة اعتراضية أو معترضة . وقد اخترنا التعبير بمتوسطة ، أدبا مع القرآن الكريم .

ثم بين الله أحوال الأمم فى الآخرة فقال :

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) :

استعمل ضمير العقلاء فى كلمتى : (رَبِّهِمْ) و(يُحْشَرُونَ) فى دواب الأرض وطيور الجو ، إجراءً لها مجرى العقلاء ، بعد بيان أنها أمثال الناس فى نظم حياتها .

والمعنى : ثم - إلى ربهم ومالك أمورهم - يحشرون كما يحشر الناس ، فينصف بعضهم من بعضهم بموجب مالديهم من إدراك .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاء مِنَ الشاةِ القَرْنَاء »[(١)] .

وعن ابن عباس : حَشْرُ الدواب والطير ؛ مَوْتُها .

والأول أصح ، لظاهر الآية والحديث .

وبه أخذ أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم .

وقال جماعة : هذا الحَشْر الذى فى الآية ، يرجع إلى الكفار ، وماتخلل من كلام ، فهو معترض ، وإقامة حجج . والحديث مقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب ، والقصاص ، والاعتناء فيه. حتى يفهم منه : أنه لابد لكل أحد منه .

وصحح القرطبى الأول ، لصراحة الحديث . وقال : إنها - وإن كان القلم لايجرى عليها فى الأحكام - ولكنها تؤاخذ فيما بينها .

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾) .

المفردات :

(صُمٌّ) : جمع أصم ، وهو ؛ من ثَقُل سمعه . .

(١) أخرجه مسلم : انظر القرطبى ٦ طبع دار الكتب . والشاة الجلحاء : التى ليس لها قرن .

(وَبُكْمٌ) : جمع أَبْكَم ، وهو ؛ الأخرس ، وخصه بعضهم : بمن وُلد لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر .

(فِي الظُّلُمَاتِ) : المراد بها ؛ ظلمات الجهل والعناد .

التفسير

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ...) الآية .

المراد بالآيات : القرآن الكريم ، أو جميع الحجج ، ويدخل فيها القرآن الكريم .

والمعنى : والذين جحدوا بآياتنا ، ولم يهتدوا بهداها ، مثلهم كمثل :الصم الذين لايسمعون ، البُكْم الذين لا يتكلمون ، الذين احتوتهم الظلمات فلا يبصرون . فكيف يهتدى هؤلاء إلى سواء السبيل - وحالهم ما ذكر - ؟! .

(مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

هذه الجملة مقررة لما سبق من حالهم ، مفيدة أنهم مقيمون على الضلال فلا يستغرب تكذيبهم .

والمعنى : مَن يشإ الله إضلالَه - لفساد طويته - يَخْذُلْهُ ، ومَن يشأْ هدايته - لحسن اختياره - يَجعلْهُ على طَريق مستقيم : فى العقيدة والأخلاق ، ويوفقه لصالح الأعمال .

(قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾) .

المفردات :

(أَرَأَيْتَكُمْ) : أخبرونى .

(السَّاعَةُ) : هى القيامة . وسميت بذلك لأنها تَفْجَأُ الناس فى ساعة علمها عندالله ، والمراد بها : أهوالها .

(وَتَنسَوْنَ) : وتتركون .

التفسير

٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

لا يزال الكلام عن المشركين موصولا .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، تبكيتا لهم على عبادتهم غَيْرَ الله تعالى ، وإلزاما لهم بما لا يستطيعون إنكارَه : أخبرونى ، إن أتاكم عذابُ الله فى الدنيا ، أو أتتكم القيامة بأهوالها فى الآخرة ، وانتقم الله منكم فيها : أغيرَ الله تدعون لكشف الضر عنكم - إن كنتم صادقين فى زعمكم أن أصنامكم آلهة ، أو إن كنتم من أهل الصدق ؟ !

ولما كانت عادتهم أنهم إذا وقعوا فى شدة تركوا دعاء أصنامهم واتجهوا إلى الله تعالى ؛ يدعونه ليكشفها عنهم ، لاعتقادهم أنهم إن دعوها لا تجيبهم . وإن دعوه سبحانه أجابهم ، وفرَّجها عنهم .

فلهذا تولى الله الإجابة عنهم بما لا يستطيعون إنكاره ، فقال :

٤١ - (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) :

أى : ليس غيرُ الله تدعون . بل تخصونه - وحده - بالدعاء ، فيزيلُ ما تدعونه إلى إزالته ، وتتركون شركاءكم تركا كليًّا ، كما روى عن ابن عباس .

وقيل : النسيان على حقيقته ، فَهُمْ - لشدة الهول وعظيم الخطر - لا تخطر آلهتهم ببالهم .

وتأخير نسيانهم لآلهتهم عن كشف الضُّر - مع أنه سابق عليه - لإظهار كمال العناية بكشف الضر ، والإيذان بترتيبه على دعاء الله خاصة .

فإن قيل : إن العذاب الدنيوى المماثل لعذاب الأُمم السابقة وقوارع الساعة ، لا يكشفان بالدعاء .

فالجواب : أن كشف ذلك معلق بالمشيئة ؛ كما نَصَّ عليه قوله تعالى :

(فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ) :

ومعلوم أن الله تعالى ، لا يَشاء كشفهما . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »[1] .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾) .

المفـردات :

(بِالْبَأْسَآءِ) : بالداهية والشدة .

(وَالضَّرَّآءِ) : والضُّر .

(لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) : لكي يدعوا الله فى تذلل وخضوع .

(فَلَوْلَا) : بمعنى : هَلَّا . وهى هنا ؛ للتوبيخ والتنديم . وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

التفسير

٤٢ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) :

هذا كلام مستأنف ، لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، بذكر ما حدث لإخوانه المرسلين من إعراض أقوامهم وعدم تأثرهم بالزواجر . فإن البلوى إذا عَمَّتْ هانت كما أن فيه إنذارا لقريش بأنهم إذا تمادَوْا فى شركهم ـ أُهْلِكوا ـ كما حدث . لأمثالهم السابقين.

(١) البينة ، الآية : ٦

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلًا إلى أمم كثيرة ، فى زمان قبل زمانك ، فكذبوهم فعاقبناهم على تكذيبهم وكفرهم بالشدائد : كالقحط والجوع ، وبالإضرار : كالمرض ونقصان الأنفس والأموال ، لعلهم يبتهلون ويتذللون إلى ربهم تائبين من كفرهم ومعاصيهم .

٤٣ ـ (فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

لَوْلَا هنا : للتنديم والتوبيخ على تركهم التضرع ، مع وجود مقتضيه وانتفاء المانع منه.

والمعنى : فهلَّا ـ حين جاءهم بأسنا وشدتنا ـ ابتهلوا إلينا خاضعين مستغفرين ، ولكنهم استمروا فى قسوة قلوبهم ، فلم ينزجروا بما بلوناهم به ، ولم يتوجهوا إلينا بالدعاء والاستغفار . وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملونه من الشرك والمعاصى ، وحسَّنه إليهم ، فأقاموا عليه .

(فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾) .

المفردات :

(نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) : تركوا الاتعاظ بما خُوِّفوا به ، وهو : البأساء والضراء .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(مُبْلِسُونَ) : متحيرون ، آيسون من النجاة .

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ) : فأهلك آخرهم . من دَبَرَهُ ؛ إذا كان خلفه ، وقَطْع دابرهم : كناية عن إهلاكهم حتى آخرهم وهذا يستلزم ـ قبل ذلك ـ إهلاك أولهم بالضرورة .

التفسير

٤٤ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . . .) الآية .

فلما غَفَل مُكَذِّبو الرسل السابقين ، عمّا ذُكِّروا وخُوِّفوا به من البَأْساء والضَّرَّاء ، وتركوا الاتعاظ به ، واستمروا فى كفرهم وتكذيبهم - فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شَيْءٍ من النعم ، لعلهم يذكرون بها فضل ربهم ويؤمنون به ويشكرونه ، حَتَّى إذا بَدَّلوا نعمة الله كفرا ، وفَرِحوا بما أُعطوا : بَطَرا وجحودا - أخذناهم بالعذاب فجأَةً فإذا هم متحيرون يائسون .

روى الإمام أحمد بسنده ، عن عقبة بن عامر ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِى العَبْدَ مِنَ الدُّنيَا - عَلَى مَعَاصِيهِ - مَا يُحِبُّ ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ... ثُمَّ تَلَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) »[1] .

٤٥ - (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

المعنى : فَأُهْلِكَ القومُ الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر ، ولم يَنْجُ منهم أحد ، والحمد لله رب العالمين على إهلاك الظالمين ، لتخليص الناس من شؤم عقائدهم .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾) .

المفردات :

(وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ) : أى غطاها فأصبحت لا تعقل .

---

(١) ابن كثير : ٢

(نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) : نكرر الدلالات مصروفة من أُسلوب إلى آخر .

(يَصْدِفُونَ) : يعرضون .

(عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً) : فَجْأَةً بدون أمارات ، أَو ظاهرا تسبقه علامات .

التفسير

٤٦ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) :

قل أيها الرسول لقومك : أخبرونى – إن أذهبَ اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكم ، وغَطَّى على قلوبكم ، فصرتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون – أَيٌّ هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه – يأْتيكم بما أخذه منكم ؟ . . . انظر وتعجَّب – يامحمد – كيف نبين – لهم الآيات ونصرفها من أُسلوب إلى أُسلوب : ما بين حجج عقلية ، وتوجيه إلى آيات كونية ، وترغيب وترهيب ، وتنبيه وتذكير، ثم هم – بعد ذلك كله – يعرضون عن الحق ! ! واعلم أن القلوب ، تستعمل فى القرآن الكريم ، مصادر للإدراكات العقلية كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا . . . »[1] .

والمعروف طِبِّيًّا : أَن مراكز معينة فى المخ ، هى موطن العقل .

وبما أن القلب هو سر الحياة – وهو الذى يغذى تلك المراكز العصبية العاقلة فى المخ – فلذا يسند الفهم والتعقل إليه مجازًا . أَو لعله المركز الأَول للعقل . ولكن لم يعرف ذلك بعد .

والمراد من الخَتْم على القلوب : حَجْبُهَا ومنعها عن تعقل المدركات المختلفة .

والمراد من الآيات التى يصرفها الله : ماجاء فى القرآن من الآيات الدالة على شئونه تعالى .

(١) الأعراف ، من الآية : ١٩٧

٤٧ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) :

قل لهم - تبكيتا وتقريرا : أخبرونى ؛ إن جاءكم عذابُ الله فى الدنيا - فجأة بدون أمارات تنبهكم إليه ، أو جهرة تسبقه علامات تدل عليه ، هل يهلك - انتقامًا بهذا العذاب أو ذاك - سواكم أيها القوم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى ؟ !

ومن كان ظالما ، فهو الجدير بتعذيب الله ، دون سواه .

وصحت مقابلة البغتة للجهرة ، لأن البغتة لـمَّا كانت مقدماتها خفية ، جعلت بمنزلة الشىء الخفى فقوبلت بالجهرة .

وقيل عذاب البغتة : ماكان ليلا ، لأن الغالب فيه ذلك . وعذاب الجهرة ماكان نهارا ، لتكون هذه الآية - بذلك التأويل - مثل قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »[1] .

والاستفهام فى قوله تعالى : (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) للتقرير .

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾) .

المفـردات :

(مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) : التبشير ؛ الإخبار بما يسر . والإنذار ؛ التخويف مما يضر .

(يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ) : أى يصيبهم .

(يَفْسُقُونَ) : يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصى .

---

(١) يونس ، الآية : ٥٠

التفسير

٤٨ـ (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

هذه الآية ـ والتى تليها ـ مرتبطتان باقتراح المشركين على الرسول : الآيات التى يشير إليها قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . »[1] .

والمعنى : وما نبعث المرسلين إلا مبشرين للمؤمنين الصالحين بحسن الثواب ، ومنذرين للمكذبين الفاسقين بسوء العقاب ، لا لِيُقْتَرَحَ عليهم غيرُ ما جاءوا به من الآيات . فمن آمن بالله ورسله ، وأصلح نيته وعمله ، حسب شرائعهم ، فلا خوف عليهم من عقاب ، ولا هم يحزنون على فوت ثواب .

٤٩ـ (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

والذين كفروا بالمرسلين ، وكذبوا بآياتنا التى أنزلناها عليهم ، وبمعجزاتنا الدالة على صدقهم ، وشغلوا أنفسهم باقتراح الآيات عليهم ـ غير مكتفين بالمعجزات التى أظهرها الله على أيديهم ، تعنتا وحسدا وعنادا لهم ـ فهؤلاء ، يصيبهم العذاب ـ الدنيوى والأخروى ـ بسبب استمرارهم على فسقهم ، وخروجهم عن طاعة ربهم .

(قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾) .

المفردات :

(خَزَائِنُ اللهِ) : المراد بها ؛ خزائن مقدوراته ؛ كما قال الجبائى .

(الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : المراد بهما ؛ الضال والمهتدى .

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٣٧

التفسير

٥٠ - ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ...﴾ الآية .

قل أيها الرسول ، لمن يقترحون عليك غير ماجئت به من الآيات : أنا لا أدَّعى أن عندى خزائن مقدورات الله أتصرف فيها كما أشاء استقلالا أو استدعاء من الله ، حتى تطلبوا منى أن أقلب الجبال ذهبا وأن أفجر الينابيع من الأرض ، لتزرعوا على مياهها صحراءكم ، إلى غير ذلك من اقتراحاتكم - فذلك من شأن الله الذى لايتحكم عليه أحد ، فيقترح عليه من الآيات مالا تبدو حكمة فى تحقيقه . وكذلك لا أدعى علم الغيب ، حتى تطالبونى بإخباركم بوقت نزول العذاب بكم بقولكم : « ... مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[١] .

ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ حتى تطالبونى بأن أرْقَى فى السماء كما هو شأن الملائكة ، أو تَعُدُّوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى نُبُوَّتِى ، فإنكم قلتم : « .. مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ... »[٢] وما أنا إلا نبى : أتبع ما أوحاه رَبِّى إلىَّ . فلا تطلبوا منى ماليس من شأنى .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ :

قل لهم أيها الرسول : لايمكن أن يستوى الضال الشبيه بالأعمى - فى عدم تبين الحقائق - بالمهتدى الشبيه بالمبصر فى استجلاء الأمور ... أتسمعون هذا التذكير فلا تتفكرون فيه؟!

واعلم أنه ليس من الحكمة أن يجاب المتعنتون إلى ماسألوا ، فإنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »[٣] .

فضلا عن أنهم - إن لم يؤمنوا بما طلبوه بعد مجيئه ، حق عليهم الهلاك ، كما حدث لمن قبلهم . كقوم صالح .

ولا يقتضى تمييز الملائكة بقدرتهم على الرقى فى السماء كلما أرادوا ، أو تمييزهم بأنهم لايأكلون ، ولا يشربون : أن يكونوا أفضلَ من الأنبياء ، كما زعم الجبائى ، فالمزية لا تقتضى الأفضلية ، وإلا لكان بعضُ الحيوان أفضلَ من الإنسان ، بما تميز به عليه ، كالنحل

(١) سورة سبأ ، من الآية : ٢٩
(٢) الفرقان ، من الآية : ٧
(٣) يونس ، الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

فى بناء بيوته الهندسية ، وإفرازه العسل ، وكالطيور فى تعرفها المراعىَ الصالحة ، وسلوكِها السبيل إليها بالغريزة ، دون أن يخبرها بها مخبر ، أو يهديها إليها هادٍ ، ودون أن يكون لها اطلاع سابق ورحلة من قبل إليها .

(وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾) .

المفردات :

(وَأَنذِرْ) : الإنذار ؛ التخويف .

(وَلِىٌّ) : ناصِر .

(شَفِيعٌ) : الشفيع ؛ من يرجو رفع ضُر ، أو جلب خير لغيره .

التفسير

٥١ ـ (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

وأنذر ـ أيها الرسول بما يوحى إليك من القرآن ـ الذين يخافون أن يُحشرُوا ويجمَعوا إلى حساب ربهم يوم القيامة ، ليس لهم من غيره نصير يحميهم ـ من حساب ربهم وعذابه ـ بقوته ، ولا شفيع يخلصهم من ذلك بشفاعته ورجائه ـ أنذر هؤلاء بالقرآن ؛ لعلهم يتقون النار بالإيمان والطاعة .

واعلم أن مَن يخافُ الحَشْرَ إلى الله ـ وليس له ولى ولا شفيع من غيره تعالى ـ أصناف ثلاثة :

١ ـ صنف أهْل الكتاب : القاطعين بالبعث ، الشَّاكِّين فى شفاعة أنبيائهم لهم .

٢ ـ وصنف المشركين : القاطعين بالبعث الشاكين فى شفاعة أصنامهم لهم .

٣ – وصنف المشركين : الشاكين فى البعث وفى شفاعة الأصنام لهم .

فشك هذه الأصناف الثلاثة فى شفاعة هؤلاء الشفعاء ، يجعلهم إذا سمعوا الإنذار يخافون سوء العاقبة حينما يقدرون فى نفوسهم ماجاء به الرسول . فيفكرون فيما يقول . وربما هداهم التفكيرُ إلى الحق ، فآمنوا .

أما المنكرون للحشر إنكارا تاما ، والقائلون به : القاطعون بشفاعة آبائهم أو أصنامهم فهؤلاء لايؤمنون – ولو جاءتهم كل آية – حتى يَرَوُا العذابَ الأليم . كما جاء فى قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » (١)

وقد مرت الإشارة إلى ذلك قريبا .

ولكون موقفهم من الرسالة ماذكر ، مِنَ الرسول بالاهتمام بهذه الطوائف ، التى تخاف الحشر إلى ربها – دون شفيع – لعلهم يتذكرون .

ويستلزم أمر الرسول بالاهتمام بهم ، ألَّا يكترثَ بمن عداهم ، من الصُّم البُكْم : الذين لا يعقلون ولا يهتدون .

(وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾) .

(١) يونس ، الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

المفــردات :

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) : أى بأول النهار وآخره .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : يريدون ذاته .

(فَتَنَّا) : ابتلينا .

التفسير

٥٢ – (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...) الآية .

لَمَّا أمر الله رسوله فى الآية السابقة – بإنذار من يَخْشَوْنَ أن يُحشروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ، سواءٌ أكانوا مشركين أم أهل كتاب – نهاه سبحانه وتعالى – عن أن يكون إنذارهم سببا فى طرد المؤمنين الضعفاء – من مجلسه عليه السلام – طمعا فى إيمان هؤلاء .

وسبب نزول هذه الآية – على مارواه الإمام أحمد وغيره : أن رؤساء المشركين . قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردتَ هؤلاء وأرواح[1] جبابهم ، جلسنا إليك وحادثناك : يعنون فقراء المسلمين كعمار ، وصهيب ، وخبَّاب ، وسلمان ، وأضرابهم . رضى الله عنهم – فقال صلَّى الله عليه وسلم : « مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ » فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا . فإذا قمنا فأقعدهم معك ، إن شئت . فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم » طَمَعًا فى إيمانهم ، فنزلت .

والمعنى : ولا تُبْعِد عن مجلسك ضعفاء المؤمنين : الذين يَدعون ربهم ويعبدونه دائمًا . مخلصين . فلا يشركون فى ذلك شركًا : جليا ولاخفيا . بل يريدون وجْهَهُ وذاتَهُ وحده . ليس عليك أيها الرسول من حساب أُولئك المشركين – إذا استمروا على شركهم ومعاصيهم – من شىء . فالحساب على ذلك خاص بهم ، لايتجاوزهم إليك . فلا يحملنَّك الحرصُ على إيمانهم : أن يُبْعَدَ الفقراءُ عن مجلسك معهم ، استجابة لرغبتهم . فكما أنه ليس على المشركين من حسابك على عملك شىء ، فكذلك ما عليك من حسابهم على عملهم من شىء .

---

(١) أرواح جمع ريح بمعنى رائحة . قال صاحب القاموس : والراح يجمع على أرواح . ثم ذكر ضمن معانيه ، الرائحة . وكان هؤلاء الفقراء يلبسون جبابا تفوح منها روائح ، تؤذى المشركين ، لأنهم لم يجدوا بديلا عنها حتى يغسلوها ، فكانوا يلبسونها دائما ، فتفوح منها روائح العرق المتراكم ، فلذا طلب المشركون إبعادهم عن المجلس إذا جلسوا مع الرسول . استعلاء وتكبرا .

فلا يحملنَّكَ الحرصُ على إيمان المشركين : أن تطرد فقراءَ المؤمنين وتُبْعِدَهم عن مجلسك . فتكون بذلك من الظالمين .

واعلم أيها القارئُ الكريم : أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، قصد من تخصيص الوقت للمشركين حين يجلسون إليه ، تأليف قلوب المشركين، ولم يقصد طَرْدَ المؤمنين حقيقة . ولهذا لم يَرْوِ أَحَدٌ أن قلوب فقراء المؤمنين انكسرت لذلك .

وتعبير القرآن الكريم عن تخصيص الوقت للمشركين بأنه طَرْدٌ لفقراء المؤمنين ، يُرَاد منه إظهار كرامةِ المؤمنين على الله دون المشركين . حتى جَعل تخصيصَهم بوقتٍ ، طَرْدًا لهؤلاء المخلصين ... ومعلوم أن النهى عن طرد الضعفاء ، لايلزم فيه سوى جملة (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ) .

فنظمه فى سلك مالا شبهة فيه . وهو انتفاءُ أن عليهم من حساب الرسول شيئًا .. على طريقة قوله تعالى : «... لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

والمقصود الأساسى من الآية : أن من كانوا عند الله بهذه المنزلة ، لايجاب المشركون إلى ماطلبوه من طردهم عن مجلسه إذا كانوا معه . وأنَّ شأنَ المشركين عند الله تعالى : غاية فى الهوان ، فلا يُهْتَمّ بهم .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الإسلام لا يميز بين الناس بالمال والرياسة ، بل بالإيمان والعمل الصالح ، وإن كانوا فقراءَ معدمين ، وعلى أن الأمراء مطالبون بإعطاء الفقراء حقهم من مجالس العلم ودوره ، وألَّا يمنعوهم عن مجالسة الأغنياء فيها .

٥٣ ـ (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) :

ومثل ذلك الابتلاء والفتنة ، فتَنَّا المشركين بالمؤمنين ، ليقولوا محتقرين لهم : (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) : كما قالوا محتقرين لدينهم : «... لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ... »[2] .

(١) النحل ، من الآية : ٦١ (٢) الأحقاف ، من الآية : ١١

(أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) : فيمنحهم من النعم مايستحقون . فكيف يحقر هؤلاء الحاقدون ، غيرَهم من أهل الاستحقاق لأنعمه سبحانه ؟!

(وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾) .

المفردات :

(بِجَهَالَةٍ) : بِسَفَهٍ وسوء رأى .

(وَلِتَسْتَبِينَ) : ولِتَتَّضِحَ .

(سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) : طريق أهل الذنوب .

التفسير

٥٤ - (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ...) الآية .

هذه الآية الكريمة ، ليست خاصة بالمنهى عن طردهم من ضعفاء المؤمنين ، كما قيل مرويًّا عن عكرمة رأيًا له . فإن اللهَ مدَحهم فيما سبق - بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى، وهذا لايتناسب مع الوصف هنا : بأنهم عملوا السوء بجهالة .

فالحق أنها دستور عام لجميع المؤمنين المقصرين ، إذا ماتابوا وأصلحوا.

والمعنى : وإذا جاءك - يامحمد - الذين آمنوا - وقد أصابوا بعض الذنوب - فقل تبشيرا لهم : سلام عليكم أي مسالمة من الله لكم . وتلك المسالمة ، هي أنه تعالى ، قضى على نفسه بالرحمة لعباده: تفضُّلًا . وذلك أنه مَن عمِلَ منكم سوءًا أي ذنبا بجهالة - أي سفه وسوء رأى - فشأنه تعالى : أنه غفَّارٌ للذنوب ، رحيم بعباده . فلاتقنطوا من رحمة الله .

واعلم أن هذه الآية الكريمة ، فتحت باب الرجاء أمام أهل الذنوب .

فعلى كل مذنب أن يراجع نفسه أمام هذا الكرم الإلٰهى ، وأن يرعوىَ عن غَيِّه ويتوب من ذنبه ، ويُقْبلَ على طاعة ربه .

٥٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) :

ومثل ذلك التبيين الواضح ، فى صفةِ أهل الطاعة وأهل الإجرام - المصِرِّين منهم والأوَّابين - نُبَيِّنُ سائرَ الآياتِ ، لما له من فوائد كثيرة ، ولتتضح طريق المجرمين فيتحاشاها الراشدون .

(قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ) ﴿٥٨﴾ .

المفـردات :

(تَدْعُونَ) : تعبدون .

(بَيِّنَة) : حجة .

(يَقُصُّ الْحَقَّ) : يتبع الحكمة .

التفسير

٥٦ - (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ...) الآية .

بعد مانَهى الله الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، عن إبعاد فقراء المسلمين عن مجلسه ، حين يجلس إليه المشركون تألُّفًا لقلوبهم ، أتبعه بيان رحمته بالمؤمنين التائبين من ذنوبهم ، أمرَه - سبحانه - فى هذه الآية وما بعدها - أن يقطع أطماعَ المصِرِّينَ على الشرك فى صرفه عن دعوة التوحيد .

والمعنى : قل أيها الرسول للمشركين : إنى نُهيت من الله تعالى ؛ أن أعبدَ معكم الأصنام التى تعبدونها من دون الله .

ثم أمره الله - فى إيجاز رائع - أن يبين لهم : أن عبادتهم إياها لاتستند إلى دليل . بل تجرى حسب هواهم ، ومن اتبع الهوى ، ضل عن الهدى . فقال :

(قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا) :

وَبَعُدْتُ عن الحق .

(وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) :

إلى سبيل الرشاد ، لو اتبعت منهجكم فى عبادة غير الله .

٥٧ - (قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ ...) الآية .

المراد بالبينة : اليقين ؛ كما قال ابن عباس . أو الحجة الواضحة ، وهى القرآن . كما قال غيره .

والمعنى على رأى ابن عباس : قل لهم أيها الرسول : إنى على يقين من ربى . وكذبتم به ، حيث جعلتم له شركاء عبدتموها معه . ومَن جعل لله شركاء فقد كذب بوحدانيته تعالى ، وإن اعترف بخالقيته .

والمعنى على رأى غيره : قل : إنى على حجة من ربى وهى القرآن الذى أيدنى به ، وكذبتم بهذا القرآن ، حيث زعمتموه : شِعْرا وسِحْرا ، وأساطيرَ الأولين .

وقد كانوا يستعجلون نزول العذاب الذى توعدهم الله به إن استمروا على شركهم . ويقولون مستهزئين : « ...مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] فأمر الله الرسول أن يقول لهم :

(١) سبأ ، من الآية : ٢٩

(مَاعِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) :

أى : ليس من شأنى ولا فى حكمى هذا العذاب الذى تتعجلونه ، وتتخذون من تأخره ذريعة لتكذيب القرآن والصدّ عن الإسلام . فما الحكم - فى شأنه - تعجيلا وتأجيلا ، وفى جميع الشئون - إلا لله تعالى على مقتضى الحكمة فى حُكمه وقضائه . وهو خير الفاصلين فى قضايا خلقه . وهو يرى الحكمة فى إمهالكم فأمهلكم .

ثم أمره أن يقول لهم :

٥٨ - (قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) :

قل لهم : لو كان أمر عذابكم مفوضا إلىّ من الله تعالى ، لطلبت من ربى أن يعجل به ، غضبا لأجله بسبب كفركم به ، ولَقُضِيَ الأمر بينى وبينكم ، بإنزال هذا العذاب بكم ، والتخلص من شرككم وكفركم . والله أعلم بكم أيها الظالمون ، وبما ينبغى لكم من الإمهال ، استدراجًا لكم لتشديد عذابكم إن بقيتم على ظلمكم وشرككم . ولكونه تعالى أعلم بما ينبغى لكم ، لم يفوض أمر عذابكم إلىّ حتى أعجله لكم . ولمّا أتمّ الله بيان اختصاص المقدورات الغيبية به تعالى - من جهة القدرة - أتبعه بيان اختصاصها به - كذلك - من جهة العلم ، فقال سبحانه فى ضمن ما أمر به رسوله أن يبلغه لقومه :

(وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾) .

المفـردات :

(مَفَاتِحُ) : جمع مِفْتَح أو مِفتاح - بكسر الميم فيهما ، وهو أداة الفتح . والمراد بمفاتح الغيب : أسباب علمه . ويجوز أن تكون جمع مَفتح - بفتح الميم - وهو

مكان الفتح ، أى المكان الذى يُفتحُ ، والمراد منه : المخزن أو الخزينة .

ويكون المعنى على هذا : وعنده خزائن الغيب .

(كِتَابٍ مُّبِينٍ) : كتاب بين واضح فى ذاته من : أبان بمعنى اتضح . أو موضح لغيره ؛ من : أبانه بمعنى أوضحه ، والمراد بالكتاب المبين : علم الله ، أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٥٩ ـ (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ . . .) الآية .

المراد من مفاتح الغيب : مايُتَوَصل به إلى علم الغيب . ومعنى كونها عنده تعالى : أنها داخلة تحت علمه .

والمعنى المراد من هذه الجملة : أنه تعالى ، اختص بأسباب علم الغيب كله والطرق الموصلة إليه ... ليس له فى العلم بها شريك ، وأكد اختصاصه بالعلم بها بقوله :

(لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) :

أى : لايعلم الأسباب الموصلة إلى الغيب سواه . ومن كان كذلك فلا يقدر غيره على إبراز الغيب الذى استأثر سبحانه ، بمفاتيحه .

ولايمنع اختصاصه تعالى بمفاتيح الغيب : أن يمنح بعض خواص عباده شيئا من علم الغيب ـ وهم المرسلون ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قال تعالى : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ...»[(1)] وقال تعالى : « ... وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ ...»[(2)] ، لأن العلم الذى اختص به المولى ، هو علم الغيب ذاتيا . أما علم الرسل به فليس كذلك ، إذ هو منحة من الله تعالى لهم ، ولولاها لما حصل لهم .

التنجيم وأمثاله :

عُلِمَ من قوله تعالى : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) أنّ علم الغيب ـ بالذات ـ لايكون لأحد سوى الله تعالى .

وعُلِمَ من آيتى سورتى آل عمران والجن ـ أنه سبحانه وتعالى ـ قد يُعْلِمُ بعضَ خواصِّ عباده ـ وهم الرسل ـ بعضَ الغيب .

---

(١) الجن ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) آل عمران ، من الآية : ١٧٩

وبذلك يتضح : أن علم الغيب مقصور على الله ذاتا ، وعلى رسله - منحةً وعطاءً - بقدر ، فلا يحل لأحد سواهم ، أن يدعي علمه بالغيب بل قال العلماء : إنه كافر ، لتكذيبه ماجاء فى كتاب الله تعالى من اختصاصه - تعالى - بعلم الغيب ، إلا أن يتفضل ببعضه على من يرتضى من الرسل .

أما ظنُّ الغيب بأمارات : فإنه ممكن لعباده ، فلا يكفر ولا يفسق من يدعيه ، كما يحدث من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر - حين يخبرون بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها - وبكسوف الشمس يوم كذا ، وبخسوف القمر ليلة كذا ، وكما يحدث عن علماء الفلك حين يخبرون بزمن نزول المطر ، أو نزول درجة الحرارة وصعودها ، أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا . . وكما يفعله الأطباءُ بحكم العادة عندهم ، إذ يقولون : لمن حلمة ثديها الأيمن سوداء : جنينك ذكر ، ولمن حلمة ثديها الأيسر كذلك : جنينك أنثى ، أو يقولون لها : إن كان جنبك اليمين أثقل فالجنين أنثى وإلا فهو ذكر . فيقع الأمر كما قالوا ، ونحو ذلك ، مما يخضع لقواعد علمية ، أو أمارات ظنية .

وأما العرّافون الذين يدعون علم الغيب ، كقول أحدهم لمن يستخبره عن مستقبله : إنك ستكسب كذا ، أو تتزوج فلانة أو نحو ذلك ، فهو كافر كما قاله القرطبي .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرّافين . فقد جاء فى صحيح مسلم : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فسأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، لم تُقْبَلْ لهُ صلاةُ أَربَعِينَ لَيْلَةً » .

وعند أحمد وغيره ، من رواية أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أَتَى عرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ ، فَقَد كفَرَ بما أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » .

(وَيَعْلَمُ مَافِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) :

بعد أن بين الله سبحانه ، اختصاصه بِعِلْم الغيب كله . عطف عليه بيان علمه لما يشاهد أو يغيب فى البر والبحر . وبما يسقطُ من الأوراق ، وعلمه بالرّطب واليابس ، تكملة لمتعلقات علمه ، وإيذانٌ بأن الكل - بالنسبة إلى علمه المحيط - سواءٌ فى الجلاء .

وخص البر والبحر بالذكر – دون سائر الكائنات – لأنها أقربها إلى البشر جوارا .
والمعنى : ويعلم ما فى البر والبحر من أجزائهما ، وما ظهر أو خفى فيهما : من الإنسان والحيوان والنبات ، والسوائل والجوامد ، والأدهنه والأبخرة ، وعناصرها وذراتها ، ومكونات هذه الذرات !

وبعد أن يبين علمه بذواتها – أتبعه بيان علمه بأحوالها ، رامزا إليها بقوله تعالى : (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) فإن سقوط الأوراق ، ليس إلا حالًا من الأحوال .

والمراد أنه يعلم جميع حالات الشجر وصفاته ، التى من جملتها : سقوط أوراقها ، كما أن ذكر حال الورقة – وما عطف عليها خاصة دون سائر أحوال ماعداها مما فى البر والبحر – من الموجودات الفائقة الحصر ، باعتبار أنها أنموذج لسائر أحوال الموجودات .

(وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) :
هذه الثلاثة معطوفة على (وَرَقَةٍ) داخلة معها فى حكم السقوط ، والدخول فى علم الله سبحانه وتعالى .

والمعنى : وما تسقط من ورقةٍ ولا حبةٍ فى ظلمات الأرض ، ومايسقط من رطبٍ ولا يابس إلا يعلمها الله تعالى .

وعبَّر عن علمه بالكتاب المبين ، تشبيها له به فى الثبات والوضوح : تقريبا للأذهان وإلَّا ، فَعِلْمُ الله أعظم من الكتاب المبين وضوحا وثباتا وأزلية .

وقيل : المراد من الكتاب المبين : اللوح المحفوظ . فيكون ذلك كناية عن علمه تعالى به ؛ فإن من أثبت ذلك فى كتابٍ عنده ، فهو بما أثبته فيه عليم .

وعلى أىِّ الرأيين . فقوله تعالى : (إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) : كالتكرير لقوله : (إِلَّا يَعْلَمُهَا) جئ به للتذكير والتأكيد .

(وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ
ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾) .

المفردات :

(يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ) : التوفى لغة ؛ قبض الشيء بتمامه، وأكثر ما يستعمل فيه قبض الروح .

والمراد منه هنا : الإنامة ؛ أى يُنيمكم فى الليل .

(جَرَحْتُمْ) : كسبتم .

(يَبْعَثُكُمْ) : يوقظكم .

(أَجَلٌ مُّسَمًّى) : وقت محدد لكل واحد ينتهى إليه عمره .

(الْقَاهِرُ) : الغالب .

(تَوَفَّتْهُ) : قبضت رُوحَه .

التفسير

٦٠ ـ (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُم بِالنَّهَارِ . . .) الآية .

بيَّن الله ـ فيما تقدم قريبا ـ أن الله أمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم : أن يقول لقومه المشركين : «مَاعِندِى مَاتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ » الآيات : ردًّا على استعجالهم العذاب الموعود

بقولهم : «... مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » وردًّا على طلبهم له بأسلوب آخر كقولهم : «... فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] وقولهم له : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ... »[2] .

وجاءت هذه الآية ، للإشارة إلى أن إمهال الله ــ تعالى ــ لهم ليس لغفلةٍ عن كفرهم ، فإنه محيط بكل أمورهم . ولكن ليُقْضَى أجلٌ مسمى يرجعون بعده إليه تعالى . فيعذبهم .

والمعنى : قل أيها الرسول ، لقومك الذين يستعجلونك بالعذاب : الله الذى توعّدكم به ، هو الذى ينجيكم بالليل ، فيجعلكم ــ بالنوم ــ لا تكادون تحسون ولا تميزون . كأنما قبض أرواحكم فعلا .

وهو يعلم ماكسبتم بالنهار ، من ألوان الكفر والمعاصى ويحصيه عليكم ثم إنه يوقظكم بالنهار ــ مع علمه بما تكسبون فيه من الآثام ــ لينتهى أجل سمّاه تعالى ــ لكل واحد منكم ، فلا تدفعه معاصيكم إلى تعجيل العذاب بكم ... ثم إليه ــ وحده ــ رجوعكم بالبعث والحشر . ثم يخبركم بما كنتم تعملون من السيئات ، ويجازيكم عليها .

وتخصيص الليل بالإنامة ، والكسب بالنهار ؛ لأنه الغالب من عادات الناس .

وقد أشار الله بالبعث بعد النوم الذى يتكرر كل يوم ، إلى إمكان البعث بعد الموت الذى أنكره المشركون ، وأنكروا العذاب بعده . إذ أنه ــ تعالى ــ إذا كان يبعث كل نائمٍ بعد أن كان كالأموات بلا حِسٍّ ولا تمييز ، فإنه ــ بلاشك ــ قادر على بعثهم بعد الموت.

٦١ــ (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) :

أى : وهو الغالب على عباده ، المتصرف فيهم ، إيجادا وإعداما ، وإحياءً وإماتة ، وتعذيبا وتنعيما . إلى غير ذلك من شئون القهر والسلطان : لا يشركه فيها شريك ، ولايرده عن مراده فيهم أحد ، ويرسل عليكم ــ أيها المكلفون ــ حفظةً من الملائكة طول حياتكم : يُسَجِّلُونَ

---

(١) الأنفال ، من الآية : ٣٢
(٢) الإسراء ، من الآية : ٩٢

أعمالكم - لكم أو عليكم - حتى إذا جاء أحَدَكم زمانُ الموت ، قَبضَتْ روحَه رسلُنا من الملائكة الموكَّلين بقبضِ الأرواح ، وهم لايقصرون بالتوانى والتأْخير .

وبذلك تنتهى أعمال الحفظة الذين كانوا يسجلون أعمالكم من خير وشر .

وتبدأُ أُولى درجات الآخرة ، فيشعر المكلف ببعض حظه من النعيم أو العذاب .

وقد اختلف العلماءُ فيما يكتبه الحفظة :

فمنهم من قال : إنهم يكتبون الحسنات والسيئات والمباحات ، كما يُشْعِرُ به قوله تعالى :

« ... مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ... »[1] لكنهم لايحاسَبُون على المباحات .

ومنهم من قال : إن المباحات لاتكتب ، إذ لافائدة من كتابتها ، فإنها لاحساب عليها ، وتسجيل الحفظة لأعمال المكلفين ، ليس لتذكير الله بها فإنه : أحصى كل شيء عددا ، بل لتذكير المكلفين بها - حينما يقرءُونها ، فيعرفون بها عَدْلَ الله ؛ حينما يقضى عليهم ، وإحسانَه ؛ حينما يحسن إليهم .

وإخبارُ الله لهم بكتابة أعمالهم - صغيرها وكبيرها - دافع لهم إلى بذل الجهد فى الاتجاه بها نحو الاستقامة : تحاشيًا لفضيحتهم بنشرها فى ساحة الحساب ، واتقاءً للعقاب عليها . ومالم يُنَبَّهوا إلى ذلك ، تراخَوْا فى العمل ، وتساهلوا فى المعاصى ؛ اعتمادًا على كرم الله تعالى ، مع أنه لاينبغى الاغترار بكرمه ، قال تعالى : « يَـٰأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »[2] فكما أن الله تعالى عفو كريم ، فهو عزيز ذو انتقام .

٦٢ - (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) :

ثم أُعيد جميع المتوفين - مكلفين وغيرهم - إلى الله مولاهم ومالكهم الحق . أما غيره من المعبودات ، فليس له ولاية عليهم . ولهذا لاحُكْمَ له يوم القيامة فيهم. ألا له الحكم يومئذ حقيقة وصورة : لالغيره بأى وجه من الوجوه . وهو أسرع الحاسبين ، إذ لايحتاج إلى فكر وروية ، ولايشغله شأن عن شأن ، فهو يحاسب الجميع فى أسرع زمان .

---

(١) الكهف ، من الآية : ٤٩

(٢) الانفطار ، الآية : ٦

وكيفية الحساب ، لم يَرِدْ فى شأنها خبر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولا تحيط بها عقول البشر . فلذا ، يجب الإيمان به - أى بحصول الحساب - وتفويض الأمر فى كيفيته إلى عَلَّام الغيوب .

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾) .

المفـردات :

(ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : شدائدهما .

(تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) : إعلانا وإسرارا .

(كَرْبٍ) : الكرب ؛ هو الغم والحزن الذى يأخذ بالنفس - كالكُرْبة بضم الكاف .

التفسير

٦٣ - (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . . .) الآية.

المقصود من ظلمات البر والبحر : شدائدهما . على سبيل المجاز .

وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما .

والعرب تقول لليوم ذى الشدائد : يوم مظلم . أو ذو كواكب . وأنشد الزجاج :

بَنِى أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان[1] يومٌ ذو كواكب أشهبُ

وأصل التضرع : الخضوع والتذلل . وقد يستعمل بمعنى : الإعلان ، كما هنا لمقابلته بالخفية . وبذلك قال ابن عباس والحسن .

(١) كان هنا تامة : بمعنى جاء .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، تنبيها لهم على انحطاط شركائهم عن رتبة الألوهية ، وتقريرا لهم بذلك ، وتوبيخا على عبادتها : مَنْ يُنَجِّيكم من شدائد البر والبحر : تدعونه عند نزولها بكم مُعْلنين دعاءكم ومُسِرِّين به فى خضوع وانكسار قائلين : لئن أنجانا الله من هذه الشدائد لنكونن من المستديمين لشكره .

- وقد أَمَرَ اللهُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، أن يتولى الإجابة عنهم ؛ إيذانًا بظهورها وتعيُّنِهَا وشهادتهم بها . وذلك بقوله له :

٦٤ - (قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) :

قل لهم يا محمد : الله تعالى ، ينجِّيكم من شدائد البر والبحر ، التى تدعونه - دائمًا - أن ينجِّيكُم منها كلما نزلت بكم . وينجِّيكم من كل غمٍّ ينزل بكم . لا يشاركه فى إنجائكم من ذلك شريك كما تعرفون وتشهدون . ثم أنتم - بعد إنعامه عليكم بالنجاة من المكاره إجابة لدعائكم - تعودون إلى الشرك ، ولا تحققون وعدكم بدوام الشكر . فهل يليق بعاقل أن يشرك بالله آلهةً تَخلَّتْ عنه فى وقت الشدة ، ويدعَ شكر الله الذى أسدى له نعمة النجاة ، فلا يوحِّده ولا يعبده ؟ !

(قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا) : أو يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، كل فرقة تشايع هوى
(بَأْسَ بَعْضٍ) : البأس : الشدة .

(كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) : كيف نبين ونُلَوِّن الحجج .

(بِوَكِيلٍ) : بحفيظ .

التفسير

٦٥ـ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ...) الآية .

هذا كلام مستأنف ، لبيان قدرة الله على إيقاعهم فى المهالك ـ بعد بيان أنه المنجى لهم منها . وفيه وعيد ضمنى بعذابهم إن بَقُوا على شركهم على طريقة قوله تعالى : « أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا »[1] .

والمراد بالعذاب الذى يبعثه الله من فوقهم : ماكان من جهة العلو وإن لم يكن من فوقهم فعلا . كالصيحة والريح والحجارة .

والمراد بالعذاب الذى يأتى من تحت أرجلهم : ما كان من جهة السُّفلى ، كالرجفة والخَسْف ، والإغراق .

واللبس : الخلط . ومنه قول الحماسى :

وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبة حتّى إذا التبست نَفَضتُ لها يدى

والشيَع : جمع شيعة . وهم ؛ مَن يجتمعون على أمر يتشيعون له ويؤيدونه . حقًّا كان أو باطلا .

والمعنى : قل أيها الرسول لمشركى قومك : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من أعلاكم ، كالذى حدث لقوم لوط ، وأصحاب الفيل . أو عذابا من أسفل منكم ،كالذى حدث لفرعون وقارون . أو أن يخلطكم فرقًا مختلفة الأهواء : تشايع كل

---

(١) الإسراء ، الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

فرقة رأيا وتناصره . فينشَب القتال بينكم ويذيق بعضَكم شدةَ بعض . فكيف تشركون بمن هذه قدرته ؟ .

انظر كيف نصرف الآيات ، وننوع البراهين والحجج ، على استحقاقنا التفرد بالأُلوهية ؛ ليفهموا الحق فيرجعوا عما هم فيه من الشرك .

والمراد من البَعْضَيْن فى قوله تعالى : (وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) الكفار يذيق بعضُهم بعضًا ، العذابَ ، بسبب اختلافهم على أنفسهم .

وعن مجاهد : أن الآية عامة فى المسلمين والكفار .

وقد حمى الله الأُمة المحمدية من العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم - بطريقة الاستئصال - كما كان فى الأُمم السابقة . وذلك بدعائه صلى الله عليه وسلم . ولكنه - تعالى - ابتلاها باختلافها شيعا . وإذاقة بعضهم بأْس بعض .

روى البخارى ، عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : « لما نزلت هذه الآية : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) قال صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) قال : « هذه أَهْوَنُ أَو أَيْسَرُ » » .

وروى مسلم بسنده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سَأَلْتُ رَبِّى ثلاثا : سَأَلْتُه أَلَّا يُهلِكَ أُمَّتِى بِالغَرَق فأَعْطَانِيهَا . وسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا . وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهم بَيْنَهُم . . . فَمَنَعَنِيهَا » . والمراد بالسَّنَةِ : القحط والجدب .

٦٦ - (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) :

وكذَّب قومك بالقرآن الذى اشتمل على تصريف الآيات المقتضية للتصديق . وهو الحق المطابق للواقع . فكيف استهانوا بتكذيبه !!

قل لهم أيها الرسول : لستُ عليكم بحفيظ . فلم يوكَلْ أَمرُكم إلىّ ، لأَحفظكم من التكذيب ، وما أنا إلّا منذر ، والله هو الحفيظ ، فمن آمن فلنفسه ، ومن كفر فعليها .

٦٧ - (لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

لكل خبر من أخبار القرآن زمانُ استقرار . يستقر ويقع فيه مدلُوله . وسوف تعلمون حال خبركم فى الدنيا والآخرة ، ومبلغه من الصدق .

(وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾) .

المفردات :

(يَخُوضُونَ) : يندفعون .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) : فاتركهم .

(وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ) : إمَّا ، أصله : « إن » الشرطية المدغمة فى « ما » « وما » صلة للتأكيد أى وإن أنساك الشيطان .

(بَعْدَ الذِّكْرَى) : بعد التذكر .

(وَلَٰكِن ذِكْرَى) : ولكن تذكير ووعظ .

التفسير

٦٨ - (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ...) الآية .

لايزال الكلام موصولا فى أحوال المشركين .

وسبب نزولها : أن قريشا ، كانوا يستهزئون بالقرآن . ويقولون فيه : إنه سحر وشعر ، وأساطير الأولين ، وما حَلا لهم من الأكاذيب ، فنزلت الآية ، تأمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم : أن يُعرِض عنهم إعراض منكر عليهم ، إذا سمع ذلك منهم ، ولا يجلس معهم ، ولا يجادلهم فى ذلك ، حتى لايزدادوا لجاجة فى باطلهم ، وربما دعاهم قيامه عنهم ، إلى تَرْك الاستهزاء لعدم جدواه .

والمعنى : وإذا رأيتَ ـ يامحمد الذين يندفعون بالباطل فى آياتنا ، فاتركهم وقْت اشتغالهم بباطلهم ، حتى يدخلوا فى حديثٍ غيره ، فلك حينئذ مجالستهم ، وإن أنساك الشيطان تَرْكَ مجالستِهم ، فلا تقعد ـ بعد تذكر النهى عنها ـ مع هؤُلاء القوم الظالمين ، ولا مؤاخذة عليك بهذا النسيان . . . والخطاب ـ وإن كان خاصًّا بالنبى صلى الله عليه وسلم ـ فحكمه عام لجميع المسلمين .

رأى العلماء فى نسيان الرسول

يرى بعضُ العلماء : أن ماجاء فى الآية ، من نسيان الرسولِ الأمرَ بترك مجالستهم ـ عندما يخوضون فى آيات القرآن ـ إنما هو على سبيل الفرض ، إذ لم يقعْ منه نسيان لذلك كما أنه ليس للشيطان عليه سبيل . ولهذا استعملت : « إن » الشرطية فهى لمجرد الفرض لما ليس محقق الوقوع . وذلك على حد قوله تعالى : « . . لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . »[1] .

ويرى بعض آخر من العلماء : أن الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم . والمراد غيره من المؤْمنين .

وقيل : لغيره ابتداءً . أى وإذا رأيتَ أيها السامع .

ولكن جمهور العلماء على جواز النسيان على النبى صلى الله عليه وسلم فى الأفعال . فقد جاء فى الصحيح : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ : أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِى » .

---

(١) الزمر ، من الآية : ٦٥

جاء فى الصحيح أيضا : أن صحابيا اسمه ذو اليدين . قال للنبي صلى الله عليه وسلم - بعد أن سلَّم من ركعتين فى صلاة رباعية : «أَقَصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ . فقال ذو اليدين : بل بَعْضُ ذلك قَدْ كان . فَقَالَ صلَّى الله عليه وسلم : أَحَقٌّ مايَقُولُ ذُو اليَدَيْن ؟ فَقَالُوا : نعَم . فَأَتمَّها أربعًا » .

ومع إجازتهم النسيان عليه صلى الله عليه وسلم فى الأفعال ، فقد أجمعوا على استحالته عليه فى الأقوال التى عليه تبليغها .

وفى الموضوع تفصيلات مفيدة ، يرجع إليها فى المبسوطات .

٦٩ - (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

ذكر بعض المفسرين - فى سبب نزول هذه الآية - أن المسلمين قالوا : لئن كان علينا أن نخرج من الحرم كلما استهزأوا بالقرآن ، لم نستطع أن نستقر فى المسجد الحرام ، ونطوف ، فنزلت ، والأخذ بهذا السبب ، يقتضى نسخَ الأمر بالإعراض عن الخائضين ، وتَرْكِ مجالستهم حين الخوض فى الآيات ، ويرخص فى مجالستهم لحاجة المسلمين إلى العبادة فى المسجد الحرام ، الذى يجلس فيه الخائضون ، ويوجب عليهم أن يذكروهم حين يسمعونهم يخوضون .

ورجح الإمام القشيرى ، عدم النسخ بهذه الآية . وذهب إلى أن معناها كما يلى :

وما على الذين يتقون من حساب الخائضين شىء إن أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم - مع ترك مجالستهم - أن يُذَكِّروهم ويعظوهم .

وهذا المعنى هو الذى نرتضيه تفسيرا للآية الكريمة .

فإن سبب النزول المذكور ، لم يرد بسند صحيح .

وعلى هذا الرأى ، يكون الإعراض عن مجالسة الخائضين واجبا . ويُضَمُّ إليه وجوب تذكير أولئك الخائضين قبل الانصراف عن مجلسهم .

(وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠) .

المفردات :

(ذَرِ) : اتْرُك .

(غَرَّتْهُمُ) : خدعَتْهم .

(تُبْسَلَ نَفْسٌ) : الإبسال : المنع ، ومنه أسد باسل ، لأن فريسته لاتفلت منه .

ومعنى (تُبْسَلَ نَفْسٌ) : تُمْنَع من النجاة .

(وَإن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ) : تُفْدِ نَفْسَها كلَّ فداء .

(حَمِيم) : ماء شديد الحرارة . وقد يطلق على الماء البارد . والمراد منه فى الآية المعنى الأول . لقوله تعالى : « ...وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ » (١)

التفسير

٧٠ - (وَذَرِ الَّذِين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . .) الآية .

كان المشركون حريصينَ على إحباط دعوة الإسلام . وقد جربوا كلَّ الوسائل ففشلوا ،

(١) سورة محمد ، من الآية : ١٥

ومن وسائلهم ما مَرَّ قريبا . من أنهم عرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، إقصاءَ الفقراءِ عن مجلسه إذا جلسوا إليه واستمعوا منه مايدعوهم إليه . وكان هدفهم من ذلك : إيقاع الفرقة بينه وبينهم ، وإيغار صدور المؤمنين من نبيهم . إلى جانب احتقارهم . فنهاه الله عن إبعادهم وكرَّمهم ، فاغتاظ المشركون ، وجعلوا يخوضون فى القرآن تكذيبًا واستهزاءً ، يريدون بذلك صَرْفَ المسلمين عنه ، فأمرهم الله بالابتعاد عن مَجَالِسِهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

ثم أمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن سفههم ، وألَّا يبالِى بما يقولونه فى شأنه وشأن ما أُنزل عليه ، وأن يمضِىَ فى إبلاغهم دعوة ربه ، ووعظِهم وتذكيرهِم .

وفى ذلك يقول الله :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) :

أى : واترك – يامحمد – المشركين الذين جعلوا دينَهم شيئًا يشبه اللعب واللهو ، حيث عبدوا الأوثان وجعلوها آلهة ، وأباحوا أكْلَ الميتة ، وحرموا البحيرة والسوائب ، وغيرَ ذلك من الأُمور التى لا أثر للجد فيها .

وقيل : المراد بهذه الجملة ؛ أنهم اتخذوا الإسلام – دينهم الذى كلفوا به – شيئا يشبه اللعب واللهو ، حيث سخروا بكتابه العظيم .

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) :

وخدعتهم الدنيا بأباطيلها ، فركنوا إليها ، وأنكروا البعث لقصور فهمهم ، وضَعْفِ إدراكهم .

والمقصود من أمره صلى الله عليه وسلم بتركهم : ألا يبالى بأباطيلهم . بل يمضى فى تذكيرهم ، كما تقدم .

والدليل على ذلك ، قوله تعالى ، عقب هذه الجملة :

(وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ) :

وحذِّر بالقرآن ، أُولئك المشركين ، من أن تهلِكَ نفوسُهم بماكَسَبته من الكفر والمعاصى إذ ليس لها – من غير الله – نصيرٌ أو شفيع ، يدرأُ عنها العذاب .

(وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا) :

العَدل هنا : بمعنى الفداء ، والمعنى : وإن تُفْدِ كلٌّ نفس كافرةٌ ذاتها كل فداء من عذاب يوم القيامة ، لا يقبل منها .

وقيل : العدْل هنا مقابل الظلم ، أى وإن تعدلْ كلُّ نفس كافرةٌ فى هذا اليوم ، بأن تتوب من الكُفر وتؤمن بالله ، لا يقبل منها ؛ لأَن التوبة - فى الآخرة - غير مقبولة فهى دار جزاء لا دار توبة وعمل .

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

أى : أُولئك الذينَ حُبِسوا للعذاب ، وَمُنِعُوا من النجاة بسبب كفرهم ومعاصيهم ، لهم فى جهنم شرابٌ من ماء شديد الحرارة ؛ تتقطَّع منه أَمعاؤهم ، ولهم عذاب شديد الإيلام ، بسبب استمرارهم وإصرارهم على كفرهم .

(قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾) .

المفـردات :

(وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا) : ونرجع إلى الوراء بالعودة إلى الشرك . وسيأْتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

(اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) : ذهبت بهواه وعقله .

(يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى) : المراد بالهدى ؛ الطريق الهادى إلى المقصد . جُعِلَ نفس الهدى ، للمبالغة .

التفسير

٧١- (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا . . .) الآية .

سبب نزول هذه الآية : على ما رواه ابن جرير وغيره أن المشركين قالوا للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد .

وقيل : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، حين دعاه ابنه عبد الرحمن - قبل أن يعتنق الإسلام - إلى أن يعود إلى عبادة الأصنام .

وفى توجيه الأمر إلى الرسول ، تعظيم لشأن المؤمنين ، أو لشأن أبى بكر ، حيث جعلت دعوتهم إلى الشرك ، كأنها موجهة إلى الرسول .

والذى نراه : أنه ثبت - بالقرآن والسنة - أن المشركين ، طلبوا من الرسول كثيرا : أن يترك الدعوة لهذا الدين الحق ، ويرجع إلى عبادة الأصنام ، وأغروه بكافة المغريات فأبى .

وقد أمره الله فى هذه الآية : أن يقنطهم من استجابته إلى ما طلبوه منه ، كما أمره بذلك - فى قوله تعالى : « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[(١)] .

وكما دعوه إلى الشرك ، دَعَوُا المؤمنين إليه أيضًا . قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . . »[(٢)] .

والمعنى : قل أيها الرسول ، للمشركين الذين يدعونك والمؤمنين إلى الشرك : أنعبد من غير الله المتفرد بصفات الألوهية ، ما لا يقدر على نفعنا إن عبدناه ، ولا على ضرنا

---

(١) سورة الكافرون .
(٢) العنكبوت ، من الآية : ١٢

إن تركناه . . . ومن شأن الإله الحق أن ينفع ويضر فكيف يليق بنا أن نعبد آلهة خالية من النفع والضر ؟

(وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ) :

الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرِّجْل . والرجوع على الأعقاب ؛ هو الرجوع إلى الوراء ؛ إدبارا بغير رؤية موضع القدم . جُعِلَ هذا فى الآية ، مثَلاً للعودة إلى الشرك بعد الإيمان ، فنى كليهما ذهَابٌ بلا علم ، وتعرضٌ للخطر .

قال العلامة أبو السعود : « وَالتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب . لزيادة تقبيحه . بتصويره بصورة ما هو عَلَم فى القبح » إهـ .

ومعنى هذه الجملة مع ما قبلها : كيف يليق بنا أن نعبد غير الله : ما لا ينفع ولا يضر وأن نرتد - بإغوائكم - إلى الشِّرْكِ بعد إذ هدانا الله إلى توحيده وطاعته . ونكونَ بذلك الارتداد :

(كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا) :

أى : أن مثلنا فى الإعراض عن الهُدَى والتخبط فى الضلال كمثل الذى ذهبت الشياطين بهواه وعقله ، وأضلته عن سواء السبيل الموصل إلى المقصد السديد ، فأمسى حيرانَ : لا يدرى كيف ينجو من المهالك . ويصلُ إلى غايته ؟! له رفاقٌ لم يستجيبوا إلى استهواء الشياطين ، بل ثبتوا على الطريق المستقيم الهادى إلى الخير ، وجعلوا يدعونه إليه ، يقولون له : ائتنا لتسلم من متاهات الأرض التى ضللت فيها ؟! .

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

قل أيها الرسول . لدعاة الضلال : إن هدى الله - وهو الإسلام - هو الطريق الهادى إلى السلامة فى الدنيا والآخرة . وما عداه :هو الضلال المبين ، وأُمرنا باتِّباع هداه ، لنخضعَ بذلك ، ونذعِنَ لرب العالمين .

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾) .

التفسير

٧٢ - (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

وأمرنا بأن نقيم الصلاة ونؤديَها فى أوقاتها ، مستوفيةً لأركانها وشروطها ، وأن نتقىَ الله ونخشاه : فى أمرنا كله . فلا نُقَصِّرُ فى طاعة ، ولا نُلِمُّ بمعصية ، وهو الذى إليه نُجمَع للحساب والجزاء . لا إلى غيره . فعلينا أن نمتثل أمْرَه ، ونجتنب نهيه .

٧٣ -(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) :

أى : وهو الذى خلق السموات والأرض - وما فيهما - خلقا مشتملا على الحكمة الرفيعة . ومنها أن يُعرَف بآياته فيهما فيُعْبَدَ ويُقْصَدَ . ولم يخلقهما عبثا وباطلا ، وقضاؤه المتصف بالحق والصواب - دائما - نافذ . حين يقول لشىء من الأشياء عظم أوْ هَانَ كُنْ وانْتَقِلْ إلى عالَم الوجود ، فيكون ويوجد بأمره فورا : وفقَ تدبيره وإرادته ، وله - وحده - الملك يوم يُنْفَخُ فى الصور ، لبعث الخلائق وحشرها وحسابها وجزائها ، حيث يقوم الناس لرب العالمين . هو عالم كل غائب وحاضر . وهو الحكيم الذى يصيب الحق فيما يفعله ، الخبير بخفايا الأمور وظواهرها .

واعلم أن الملك لله دائما فى الدنيا والآخرة . ولكن الله أعطى بعض عباده الملك ظاهرا ، وصورة فى الدنيا ، ويوم القيامة لا يجدون لملكهم ظلا ولا أثرا . فلهذا قال سبحانه :

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) :

أى : له الملك يوم القيامة : ظاهرا وباطنا ، صورة وحقيقة . فلا أثر لغيره فيه بأى وجه من الوجوه .

والصُّورُ : هو القرن الذى يُنْفَخ فيه ، وهو البوق ، والله أعلم بحقيقته . والنافخ فيه : إسرافيل عليه السلام كما جاء فى السنة .

وقيل : إن الصُّورَ جمع صورة . فإنها تجمع عَلى صُور بوزن بوق ، كما تجمع على صُوَر بوزن عُمَر ، وعِنَب . ويدل على ذلك قراءة قتادة (فِي الصُّوَر) بفتح الواو .

والمراد منها : الإيذان ... والنفخ فيها : إرسال الأَرواح إليها ، فتقوم لرب العالمين والله أعلم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾) .

التفسير

٧٤ – (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً . . .) الآية .

أى : واذكر يامحمد ، حين قال إبراهيم لأبيه آزر – منكرًا عبادةَ الأصنام – أتتخذ أنت وقومك ، الأَصنام التى لا تضر ولا تنفع ، آلهةً : تعبدونها من دون الله ؟ .

وآزر : أب لإبراهيم عليه السلام ، كما هو ظاهر النص القرآنى . وكان آزر وقومه يعبدون الأَصنامَ ، وَالشمسَ ، والقمر ، والكواكب .

(إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

أى : إنى أراك – وَقومك الذين يتبعونك فى عبادتها – فى ضلال عن الحق ؛ ظاهر بين . . وفى هذا تبكيت وتقريع لهم على هذا المسلك الذى يتنافى مع مايقتضيه العقل السليم ، والفطرة الصحيحة .

(وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾) .

المفردات :

(جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) : سَتره بظلامه .

(أَفَلَ) : غَرَبَ وغاب .

(بَازِغًا): مبتدئا فى الطلوع والظهور .

التفسير

٧٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...) الآية .

أى : وكما عرَّفنا إبراهيم ضلال قومه واضحا ، وأريناه الحقَّ فى مخالفتهم ، نُعَرِّفهُ ونظهر له ملك السمٰوات والأرض ، ليستدل به على وحدانيتنا .

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) :

أى : وليكون من جملة المصدقين جازما . إذ اليقين أعلى مراتب الإيمان .

٧٦ـ (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ) :

بعد أن بين القرآن ـ فيما سبق ـ يقين إبراهيم بوحدانيته تعالى بما عرفه من مظاهر القدرة والتدبير فى ملكوت الله ، شرع هنا يفصل كيفية استدلال إبراهيم عليه السلام ، ببعض تلك الظواهر لقومه فقال :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) :

أى : فلما ستره الليل بظلامه ، أبصر كوكبا ظاهرا فى السماء .

(قَالَ هَٰذَا رَبِّى) :

أى : قال ـ مستعظما شأن هذا الكوكب ـ هذا ربى ... مجاراة لقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، وتأليفا لقلوبهم ، حتى بلغوا بقلوبهم إلى التأمل فى موضع الحجة فى قوله :

(فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ) :

أى : فلما غاب هذا الكوكب وأَفَلَ قال : لا أُحب الآفلين . أى : لا أُحب اتخاذَ الآفلين أربابًا ؛ لأن الرب الحقيقى ، الجدير بالربوبية ، يستحيل عليه التغير والانتقال من حال إلى حال ، لأن ذلك من شأن الحوادث . . .

فلم ينتفعوا بهذا الاستدلال .

فانتقل إلى الاستدلال التالى فى قوله :

٧٧ـ (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) :

أى : وحين أبصر إبراهيم القمر ـ مبتدئا فى الطلوع والظهور ـ قال مستعظما شأنه : (هَٰذَا رَبِّى) مجاراة لقومه ، على نحو ماسبق فى الآية قبلها. فلما أفل وغاب ـ قال إبراهيم

عليه السلام : إرشادًا لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من الله تعالى لئن لم يُرشدْنى ربى إلى الحق ويُثَبِّتْنى عليه ـ لأكونن من جملة القوم الذين بعُدوا عن الصراط المستقيم .

ولكن هذا الاستدلال أيضا ، لم يثمر فى عقولهم المستغلقة ، فانتقل إلى استدلال آخر :

٧٨ ـ (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) :

أى فحين أبصر إبراهيم عليه السلام الشمس ، مبتدئة فى الظهور والطلوع ، قال مشيرا إلى الشمس : هذا الذى أبصره هو ربى ـ وهو أكبر من الكوكب والقمر ـ قال ذلك ليشد انتباههم إلى التأمل والنظر ، فى التفسيرات الكونية ، حتى يصلوا منها إلى معرفة الإلَٰه الصانع القدير ، المدبر الحكيم .

(فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) :

أى : وحين غابت الشمس وحُجبَت عن أعينهم ، قامت عليهم الحجة ، لكنهم لم يؤمنوا بالإلَٰه الخالق المدبر لشئون الكون ـ فأعلن إبراهيم عليه السلام حينئذ ، لقومه براءته من جميع معبوداتهم الحادثة المتغيرة ، التى كانوا يشركونها مع الله فى العبادة .

ولما أبطل ـ بالأدلة السابقة ـ ماكانوا يعبدون من دون الله ، وأعلن براءته منها ، انتقل عليه السلام ، إلى إعلان الإيمان الذى استقر فى قلبه حقا ويقينا . فقال :

٧٩ ـ (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى : إنى جعلت قصدى واتجاهى ـ بعد ظهور الحق ـ لعبادة الذى أنشأ السمٰوات والأرض ومافيهما .

(حَنِيفًا) :

مائلا عن الاعتقادات الباطلة ، إلى عقيدة التوحيد المؤيدة بالدلائل .

(وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى : ولست من الذين أشركوا مع الله بعض مخلوقاته فى عبادته .

وبذلك ثبت أن إبراهيم ليس مع قومه فى عقيدتهم .

(وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ
وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ
شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾) .

المفردات :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) : وجادله قومه .

(وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) : أحاط علمه بكل شيء .

(سُلْطَانًا) : حجة .

(يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ) : لم يخلطوه بشرك .

التفسير

٨٠ـ (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ...) الآية .

بعد أن ألزمهم إبراهيم عليه السلام الحجة على توحيد الله تعالى ، وأفحمهم بظهور الأدلة لم يجدوا وسيلة إلا المجادلة بالباطل . فقال تعالى حاكياً عنهم :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) :

أي : جادله قومه بالباطل فى دينه ، وهددوه بالأصنام ؛ أن تصيبه بسوء ، إن هو ترك عبادتها.

(قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ) :

أي : قال منكرا عليهم مجادلتهم - بعد وضوح الحق - أتجادلوننى فى وحدانية الله تعالى ، وقد أرشدنى سبحانه إلى توحيده ، فأصبحتْ حُجَّتُكُم باطلةً لا تُجدى شيئًا ؟ !

(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ) :

أي : ولا أخشى أن يَنَالَنِى سوءٌ من جهة آلهتكم الباطلة ، التى أشركتم بها مع الله .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) :

أي : لكن إن شاء ربى وقوع شىء من المكروه لى ، فإنه يكون من فعله وحده - ولا دخل لما تشركون به فى ذلك .

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) :

أي : أحاط ربى علما بكل شىء . فلا يقع فى ملكه إلا ما شاءه هو . وليست لآلهتكم مشيئة حتى أخافَها .

(أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) :

أي : أتُعرِضون عن التأمل فى أن آلهتكم جماداتٌ ، غيرُ قادرة على شىءٍ مّا ، فلا تتذكرون أنها عاجزة عن إلحاق ضرر بى ؟ !

٨١ـ (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . . .) الآية .

أى : وكيف أخاف وقوع مكروه لى من جهة آلهتكم مع عجزها ـ وأنتم لا تخافون إشراككم بالله ـ أصنامًا لم يُنزل الله عليكم بصدق ألوهيتها حجة وبرهانا ؟!

وبهذا تبين موقفى وموقفكم .

(فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : فأينا فى موقف الأمن من وقوع المكروه الذى تخوفوننا به ؟!

وفى هذا إلجاءٌ لهم إلى الاعتراف باستحقاقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأمن والطمأنينة دونهم .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : إن كنتم تعلمون الحق من الباطل بالتأمل والتعقل ؟!

٨٢ـ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . . .) الآية .

هذا جواب السؤال السابق فى الآية قبلها . وهو تأييد لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وتحقيقٌ لمدعاه . وبيانٌ واضح لمن يستحق الأمن . وهم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم من الشرك .

(أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ) :

أى : وحدهم .

(وَهُم مُّهْتَدُونَ) :

أى : إلى الطريق المستقيم دون من سواهم .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ
مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ
كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا
هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾) .

المفردات :

(حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) : أى أدلتنا التى أرشدنا إبراهيم إليها .

(حَكِيمٌ عَلِيمٌ) : بالغ الحكمة واسع العلم .

(وَهَبْنَا) : أنعمنا .

(وَاجْتَبَيْنَاهُمْ) : واختبرناهم .

(لَحَبِطَ) : لَبَطُلَ .

(وَالْحُكْمَ) : والقدرة على الفصل فى الأمور ، على أساس من الحق والصواب .

(اقْتَدِهْ) : أى ؛ تَأَسَّ .

التفسير

٨٣ـ (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ . . .) الآية .

هذه إشارة إلى تلك الدلائل التى أرشد الله إبراهيم ، إلى الاحتجاج بها على وحدانية الله وإبطال شرك قومه ، الذى كانوا عاكفين عليه وهى تبدأ من قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . » .

وفى هذا ، إشادة بمكانة إبراهيم عليه السلام ، وبالدلائل التى أرشده الله إليها .

وَيَتَأَيَّدُ هذا بقوله تعالى :

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ) :

أى : نُعْلِى منازلَ من نشاءُ رفع درجاته ؛ بإعطائه الحجة البالغة ، والبرهان الواضح حسبما تقتضيه حكمتنا . كما هو شأننا ، فيما أرشدنا إليه إبراهيم عليه السلام .

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ) :

أى : بالغ الحكمة فى كل ما يقتضيه .

(عَلِيمٌ) :

أى : واسع العلم بحال خلقه . فيعلم حال من شاء رفعه .

٨٤ـ (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا . . .) الآية .

بعد أن قام إبراهيم بتبليغ من الله إلى قومه بالحجة والبرهان ، وتمت له الحجة عليهم شرع القرآن يعدِّد بعض نعم الله عليه وإحسانِه إليه ، حيث رفع ذريته ، وأبقى فيهم النُّبوة إلى يوم القيامة . فقال تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى : ومنَنَّا على إبراهيم بابنه : (إِسْحَٰقَ) (وَيَعْقُوبَ) بعد إسحاق .

(كُلاًّ هَدَيْنَا) :

أى : هدينا وأرشدنا كلاًّ منهما ، للسير على طريقة إبراهيم .

(وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ) :

أى : وهدينا نوحا ـ النبي السابق على إبراهيم ـ إلى التوحيد والدعوة إليه .

وفى ذكر نوح عليه السلام . فى سياق تعداد النعم على إبراهيم ـ إشارة إلى أن شرف الآباء ، نعمةٌ على الأَبناء . كما أن هداية الأَبناء نعمة على الآباء .

(وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

أى : كما جزيناهم وأَحْسَنَّا إليهم بأَنواع الكرامات ، نَجْزى كلَّ محسِن .

٨٥ـ (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وكذلك هدينا : زكريا ، ويحيي ، وعيسى ، وإلياس . كلٌّ واحد مِن هؤلاء الأَنبياء ، بعد تقرير هدايته من جملة الصالحين المستقيمين .

٨٦ـ (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) :

أى : وهدينا : إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطا ، عليهم السلام . وفضَّلنا كلَّ واحد من هؤلاء بالنبوة على سائر العالمين فى عصره .

وهؤلاء الذين ذُكِروا فى الآيات من أول قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا . . .) هم من الأَنبياء الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا .

وهناك سبعة آخرون ، يجب الإيمان بهم تفصيلا . وقد ذكروا فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، وقد جمعوا فى قول بعضهم نظما :

إدريس ، هود ، شعيب ، صالح وكذا   ذو الكفل ، آدم ، بالمختار ، قد خُتِمُوا

٨٧ـ (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

أى : وهدينا ـ من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ـ جماعات كثيرة .

(وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : واخترناهم ودامت هدايتنا لهم إلى الدين الحق ، دين التوحيد والاستقامة .

٨٨ـ (ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . . .) الآية .

أى ذلك الدين الذى أوحاه الله إليهم ، ووفقهم للإيمان به ، ودعوة الناس إليه ، إنما هو هدى الله : يُرشِد إليه من يشاء هدايته من عباده .

(وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ولو حصل منهم الإشراك فرضا ـ وحاشاهم ـ لبطُلَ وذهب عنهم الذى كانوا يعملونه من الطاعات .

وفى هذا تنويه بشأن الدين الذى جاء به هؤلاء الأنبياء جميعا . وضرورة التمسك به .

٨٩ـ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ . . .) الآية .

أولئك : أى هؤلاء الأنبياء المذكورون ـ باعتبار اتصافهم بالهداية وغيرها من الصفات السابقة ـ هم :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) :

أى : أنزلنا الكتاب على بعضهم . وأمرنا البعض بدعوة الناس إلى التمسك والعمل بما نزل على غيره من الأنبياء .

(وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) :

أى : أقدرناهم على الفصل بين الناس على ما يقتضيه الحق . وأعطيناهم النبوة والرسالة .

(فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) :

الإشارة فى : (هَٰؤُلَاءِ) لأهل مكة وسائر مَنْ كفر بعد تبليغه .

أى : فإن يكفر ــ بهذه الأمور المذكورة ــ هؤلاء الكفار وغيرهم ، فإنَّنَا قد أعددنا ووفَّقنا ــ للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ــ قومًا لم يكفروا بها فى وقت من الأوقات ، بل استمروا على الإيمان بها .

٩٠ــ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .) الآية .

جملة (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . . .) صفة لما قبلها : (. . . قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) .

والمعنى : هم أولئك الأنبياءُ الذين وفقهم الله تعالى ، إلى منهج الحق ، والخير ، فاقْتَدِ بهم يامحمد ، وسِرْ على طريقتهم : من التوحيد وأصول الدين ؛ لأن دعوة الأنبياء فى أصولها واحدة .

وبعد أن أمره بالسير على طريقة الأنبياء السابقين ، أمره بأن يقول لأمته : إنه لا يثقلهم بطلب الأجر على دعوته إياهم إلى طريق الخير فى قوله :

(قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى : قل يامحمد ، لِأُمتك : لا أطلب . منكم أجرا على تبليغكم الدعوة ، وإرشادكم إلى ما أمر الله به .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) :

أى : ما القرآن ، إلا عظةٌ وإرشاد للثَّقَلَيْنِ : الإنس والجن . فتبليغهم إياه ــ بدون سؤاله إياهم أجرا ــ حَقٌّ لهم . . .

(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن
شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ
تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن
قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ
ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ
عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ
شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ
بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾) .

المفردات :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) : وما عظَّموه حق تعظيمه .

(قَرَاطِيسَ) : أوراقا مفرقة .

(فِى خَوْضِهِمْ) : فى باطلهم .

(يَلْعَبُونَ) : يَلْهَوْن .

(أُمَّ الْقُرَى) : مكّة . والمراد : أهلها .

(غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) : سكرات الموت وشدائده .

(خَوَّلْنَاكُمْ) : أعطيناكم .

(وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ) : أى فى الدنيا .

(تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) : تَشَتَّتَ جَمْعُكم .

التفسير

٩١ ـ (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن القرآن نعمة عظيمة ، ينتفع بها جميع الناس ، لما فِيه من الرشد والهداية ، أتبع ذلك ، ببيان جحود الكفار ـ وخاصة اليهود ـ لتلك النعمة فقال تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) :

أى ماعرفوا الله حَقَّ معرفته ، حتى لاينكروا إنعامه عليهم : بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

(إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) :

أى حين قالوا ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ـ وقد خاصموه فى القرآن . مبالغين بغير حق ـ فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألزمهم الله بما لاسبيل إلى إنكاره أصلا . فقال لهم :

(قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى) :

أى قل لهم يامحمد ، رَدًّا عليهم : مَن الذى أنزل التوراة على موسى ؟

وإنما اختار لإلزامهم إنزال التوراة على موسى ، لأنه معترف به ومسلم عندهم ، بدون جدال .

(نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ) :

أى أنزلنا التوراة ، واضحة فى نفسها ، مرشدة للناس إلى الطريق المستقيم .

(تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) :

أى – ومع وضوحه وظهور دلالته – تكتبونه فى أوراق مفرقة ؛ ليسهل عليكم إظهار ماتريدون اطلاع الناس عليه ، وإخفاءُ الكثير من أحكامه وشرائعه ، مما لاتحبون معرفة الناس له ، إرضاءً لشهواتكم .

(وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا أَنتُمْ وَلَآ آبَاؤُكُمْ) .

أى : وعلمكم الله – على لسان محمد صلى الله عليه وسلم – زيادة على ما فى التوراة ، بيانًا لما التبس فَهْمُهُ عليكم وعلى آبائكم ، الذين كانوا أعلمَ منكم .

ومصداق هذا قوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (١)

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) :

أمر الله نبيه – عليه السلام – أن يجيب بجواب لاجواب سواه ، عن الذى أنزل الكتاب على موسى . . . إنما أنزله الله تعالى . ثم أمره – بعد هذا الجواب – أن يهملهم ويتركهم وخوضهم فى باطلهم ، حيث لم تنفع معهم الحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة .

٩٢ – (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا . . .) الآية .

أى : هذا القرآن : كتاب الله المشتمل على ماينفع الناس ، منزلٌ من الله تعالى على محمد ، عظيمُ النفع ، كثيرُ الفوائد ، موافقٌ للكتب التى سبقته فى التوحيد ، وفى تنزيه الله ، وفى أصول العقائد ، ليكون وسيلةَ إنذار لأهل مكة ، وسائر الناس .

(١) النمل ، آية : ٧٦

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

أى : والذين يصدقون بالآخرة تصديقا يُعْتَدُّ به ، ويرجون لقاء الله ، هم الذين يصدقون بالقرآن وينتفعون به . فيحملهم ذلك على المحافظة على صَلَاتهم ، وعلى سائر ما أمرهم الله به من التكاليف .

وتخصيص الصلاة بالذكر ، لأنها عِمادُ الدين .

٩٣ ـ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . . .) الآية .

بعد أن بين الله الفريق الذى اهتدى ، وآمن ، وأدى التكاليف ـ بيَّن ـ سبحانه ـ فى هذه الآية ، الفريق الذى افترى على الله الكذب .

والمعنى : لاأحدُ أشدَّ ظلما ، ممن افترى على الله كذبا ، ادعاء للنبوة ، كمسيلمة الكذَّاب وأمثاله .

(أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ) :

أو ادَّعى نزول الوحى عليه . ولم ينزل عليه شىء . أو ادَّعى ـ باطلا ـ القدرةَ على إنزال مثل ما أنزل الله على محمد من القرآن . وهيهات أن يتم له ذلك . فإن الله تعالى يقول :

« قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(١)

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) :

بعد أن بيَّنت الآية حالهم الباطل فى الدنيا ، انتقلت إلى بيان حالهم ـ عند قرب انتقالهم من الدنيا ، وما يعقب ذلك من أهوال وشدائد .

---

(١) الإسراء ، الآية : ٨٨

والمعنى : ولو ترى يامحمد ، وقت حلول شدائد الموت وأهواله بهؤلاء الظالمين ، ورسل الموت المكلفون بقبض أرواحهم تمتد أيديهم مبسوطة إليهم : أن ينزعوا أرواحهم من أجسادهم ويلقوها فى أيدى الملائكة . قائلة لهم - إيلاما وتهكما - انزعوا أرواحكم من أجسادكم ، لأنكم اليوم تُجْزَوْن عذاب الهُون ، بسبب تقوُّلِكم على الله غير الحق ، واستكبارِكم عن الانقياد لآياته . والإيمان بالله وحده !!!

أى : لو ترى يامحمد ذلك - لرأيت أمرًا شديدا ، تقصر العبارة عن وصفه ! ! !

٩٤ - (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) الآية .

أى : ويقول الله لهم ، إذا بُعثوا : لقد جئتمونا منفردين عن الأهل والمال والولد والسلطان - كما أوجدناكم - فى أوّل حياتكم الأُولى - بدون مال ولامتاع ولاولد .

(وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ) :

أى : وتركتم ما أعطيناكم من النعم فى الدنيا ، ولم تحملوا منها - معكم - شيئًا .

(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ) :

أى : ويقال لهم توبيخا ، وفقدتم أنصاركم ، فما نرى منهم أحدا معكم . وقد كنتم تزعمون أنهم - فى استحقاق عبادتكم لهم - شركاءُ الله .

(لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) :

أى : لقد انفصمت الروابط بينكم ، وتَشتَّتَ جَمْعُكم .

(وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

أى : ذهب وضاع منكم الذى كنتم تزعمونه فى الدنيا ، من أنهم شفعاء لكم عند الله ، ومن أنه لا بَعْثَ . ولا جزاءَ ، ولاحساب .

(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) .

المفردات :

(فَالِقُ) : الفَلْق ؛ الشق .

(النَّوَى) : ما فى داخل الثمرة ؛ تمرا أو غيره .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) : يخرج النبات الحىَّ من التربة الميتة ، والزرعَ من الحبِّ ، والشجرَ من النوى .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : فكيف تُصْرَفون عن عبادته !

(الْإِصْبَاحِ) : الصبح والضياء .

(سَكَنًا) : يُسْكَن فيه من تعب النهار .

(حُسْبَانًا) : يُحسَبُ بهما الأَوقات .

(ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : ظلمات الليل فى البر والبحر .

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) : فلكم مكانُ استقرار فى الأَصلاب ، واستيداع فى الأَرحام . أَو العكس .

(يَفْقَهُونَ) : يفهمون .

(خَضِرًا) : أَخضر .

(مُتَرَاكِبًا) : رُكِّب بعضه فَوق بعض .

(قِنْوَانٌ) : الْقِنْوُ : ما يحمل من التمر وهو كالعنقود للعنب .

(وَيَنْعِهِ) : ونُضْجِه .

التفسير

٩٥ - (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . . .) الآية .

هذا شروع فى بيان قُدْرَةِ الله تعالى العجيبة : الدالة على كمال علمه ودقة تدبيره ، ولطيف صنعه وحكمته . جاء بعد تقرير أدلة التوحيد ، ونفى الشركاء والشفعاء؛ فقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) :

يخبر الله تعالى عباده : أنه يَشُقُّ الحَبَّ والنَّوى فى التراب ، فتنبت الزروع ، على اختلاف أَصنافها ، من الحبوب ، والثمار على تنوع أَشكالها وأَلوانها وطعومها ، من النوى .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ) :

هذا تفسير لما تقدم ، فهو يخرج النبات الحى مما يمتصه من عناصر التربة الأرضية الميتة ، كما قال تعالى : « وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ »(١) .

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ) :

فهو يخرج الخلايا الميتة من النبات والحيوان . كما يخرج الأظافر والشعر وبقايا الغذاء من الخلايا الحية من الإنسان والحيوان ، وحينما يموت النبات والحيوان والإنسان تتحلل أجسامها جميعا فتعود إلى العناصر الترابية التى كانت قد تكونت منها . وهى بضعة عشر عنصراً على اختلاف فى النسب بين الحيوان والنبات .

(ذَٰلِكُمُ اللهُ) :

أى : صاحب هذه الأفعال العجيبة ، هو الله ذو القدرة العجيبة ، المستحق للعبادة دون سواه .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) :

أى : فكيف تُصرَفُون عن الحق ، وتعدلون عنه إلى الباطل . فتعبدون - مع الله - إلٓها آخر .

٩٦ - (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ . . .) الآية .

أى : هو خالق الضياء ، الذى يشق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضىء الوجود ، ويستنير الأفق عن حكمةٍ وسعةِ رحمةٍ . فكلٌّ لنا به حاجة وذلك دليل القدرة التامة ، حيث أوجد الأشياء المتضادة لحاجة حياتنا إليها . مما يدل على حكمته ، وكمال عظمته ، وعظيم سلطانه .

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) :

أى : يسكن فيه الإنسان والحيوان ، ليستريح من عناء العمل فى النهار .

(١) سورة يس ، الآيتان : ٣٣ ، ٣٤

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا) :

أى : وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر : لا يتغير ، ولا يتبدل ، وبهما تُحْسَبُ الأَوقات ، التى تؤَدَّى فيها العباداتُ والمعاملات .

(ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

أى : ذلك الذى تقدم من ظهور الإصباح ، وجعْل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا - جارٍ وحاصلٌ ، بتقدير العزيز الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع تصويره .

(الْعَلِيمِ) :

الذى وسع علمه كل شىء . فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأَرض ولا فى السماء .

وقد وردت هذه الخاتمَةُ كثيرا فى القرآن . بعد ذكر خلق الليل والنهار والشمس والقمر مما يدل - دلالةً واضحة - على أن هذه الكائنات من أقوى الأَدلة على سعة الله ، وعظيم تدبيره .

٩٧ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . .) الآية .

أى : وهو الذى أوجد النجوم : لهدايتكم فى ظلمات الليل فى البر والبحر . وفى ذلك بيان لبعض آثارها الكونية .

ومن آثارها النافعة : ما ذكر فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِين . . . »[1] الآية . ولا يزال العلم يبحث عن أسرارها فيكشف جوانب من آياته - تعالى - فى هذه الأَجرام .

أما مَنْ يحاولون كشفَ أستار الغيب عن طريق هذه النجوم ، فهم مخطئون مخالفون لتعاليم الإسلام .

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

أى : قد بَيَّنَّاهَا ووضحناها لقومٍ يعلمون معانِيهَا ، ويعملون بموجبها ، لِيُتَّبَع الحق ، ويجتنب الباطل .

---

(١) سورة الملك ، من الآية : ٥

٩٨ – (وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .) الآية .

وهذا تذكيرٌ بنعمة الإيجاد من العدم .

أى : وهو الذى أوجدكم من نفس واحدة : هى آدم عليه السلام .

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) :

أى : فلكم استقرارٌ فى الأصلاب . أو فوق الأرض . واستيداع فى الأرحام ، أو فى القبر .
أو : الاستقرارُ ؛ فى الأرحام ، والاستيداعُ ؛ فى الأصلاب .

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) :

أى قد بيّناها لمن يفهمون ويَعُون كلام الله وما احتواه من المعانى .

وختمت الآية الأُولى . بقوله : (يَعْلَمُونَ) والثانية بقوله : (يَفْقَهُونَ) لأن الإنشاء من نفس واحدة . ألطف وأدقّ تدبيرًا وصنعةً : فكان ذكر الفقه – الذى هو استعمال الفطنة . وتدقيق النظر – مناسبا له .

ذكر مع النجوم العلم ، لأن النظر فى أحوالها : لا يحتاج إلّا إلى العلم . ولَفْت الذهن إليها .

٩٩ – (وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . .) الآية .

هذا تذكير بنعمة أُخرى من نعمه الجليلة ؛ الدالة على كمال قدرته .

والمراد من الماء : المطر . ومن السماء : السحاب . والماءُ ينزل بقدر : رزقًا للعباد ، ورحمةً من الله بخلقه .

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) :

أى فأخرجنا بسبب هذا الماء كلَّ صنف من أصناف النبات المختلفة ، التى ينتفع بها الإنسان والحيوان : « فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[1] .

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ – ٣٢

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) :

هذا شروع فى تفصيل ما أجمله ، من إخراج النبات .

أى : فأخرجنا - من النبات - شيئا غضًّا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة .

(نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) :

أى : نخرج من ذلك النبات الأخضر، حبا رُكِّب بعضه فوق بعض ، كما فى السنبل من القمح والشعير .

(وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ) :

وهذا تفصيل حال الشجر بعد النبات .

أى : ومِن طلع النحل ، قنوانٌ يحمل ثمرها ، ويكون فى متناول الأيدى . وهو الدانى القريب ، أو فى غير متناول الأيدى . وهو البعيد . . وَنَبَّهَ على الأُولى ، لزيادة النعمة فيها .

والقِنْوَان . مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع . مثل : صِنْو ، وصِنْوَان .

(وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ) .

أى : ونخرج منه جناتٍ من أعناب .

وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز . وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا. وقد امتن الله بهما على عباده ، فقال تعالى : « وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا »[1] وكان ذلك قبل تحريم الخمر . وقال سبحانه وتعالى : « وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . »[2] .

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) :

أى : وأخرجنا الزيتون والرُّمان مشتبهًا فى الورق ، فهو قريب الشكل بعضه من بعض . وغير متشابه فى الثمار : شكلا وطعما وطبعا . مما يدل على كمال قدرة خالقها ، وحكمة مبدعها . جلَّ جلاله .

(١) سورة النحل ، من الآية : ٧٧ (٢) سورة يس ، من الآية : ٣٤

(ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ):

أى : انظروا نظرَ اعتبار وَتبصُّرٍ – إلى ثمر الزَّيتون والرُّمان ، إذا أخرج ثمره : كيف يخرجه صغيرا ضئيلا ، لا يكاد ينتفع به ، وإلى حال نضجه ، حيث يصبح ذا نفع عظيم ولذة كاملة .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ) :

إنَّ فيما أُمرتم بالنظر إليه لَدَلائلَ كثيرةً عظيمة ، على وجود القادر العظيم ، وحكمه ووحدته .

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

لِقَوم يصدقون به ، ويتبعون رسله .

وخَصَّ المؤْمنين بالذكر ؛ لأَنهم هم الذين انتفعوا بذلك ، دون غيرهم .

ووجه دلالة ذلك على وجود إله حكيم قادر واحد : أنَّ حدوثَ هذه الأَصناف المختلفة المتشعبة من أَصل واحد ، وانتقالها من حال إلىحال على نمط بديع – لابد أن يكون بأَحداث صَنَعهَا صانع حكيم ، يعلم تفاصيلها .

(وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾) .

المفردات :

(الْجِنَّ) : المراد بهم ؛ الشياطين . أَو ما يعمهم والملائكة .

(وَخَرَقُوا) : أى اختلقوا ، وافتَرَوْا .

التفسير

١٠٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ . . .) الآية .

بعد ما تقدم من النعم الجليلة ، التى أبدعها الله عز وجل - وهى دالة على توحيده - وَبَّخ مَنْ أشرك به سبحانه ، وعَبَد غيرَه ، وردَّ عليه بقوله :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ) :

أى : وَصَيَّرُوا الجن شركآءَ لله ، حيث اعتقدوا ذلك . وقالوا : إن الملائكة بنات الله . وتسميتهم جنا ، لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين .

أو المراد بهم : الشياطين ، حيث أطاعوهم كما يطاع الله تعالى . وعَبدوا الأصنام وغيرهم : بوسوستهم وتحريضهم .

انظرْ إلى قول الملائكة يوم القيامة : « . . . سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ »[١] .

(وَخَلَقَهُمْ) :

أى : اتخذوا له سبحانه ، شركاءَ ، وقد خلقهم وحده . فلا يصح أن يُعْبَدَ سواه .

(وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى : واختلقوا وافْتَروْا لله سبحانه ، بنين وبناتٍ ، بغير علمٍ بحقيقة ما يقولون . ولكن جَهْلاً بالله وبعظمته إذ لا ينبغى - ما دام إلٰهًا - أن يكون له بنون وبنات ، أو صاحبة ، أو أن يشاركه أحدٌ فى خلقه .

وفى هذا تنبيه على ضلال من ضل ، بادعاء أن له ولدًا ، كما يزعم اليهود . حيث قالوا : عزير ابن الله . وكما قال النصارى : المسيح ابن الله . وكما زعم المشركون من العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله .

---

(١) سبأ ، من الآية : ٤١

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تَقَدَّسَ وتنزَّه وتعاظم الله عز وجل ، عما يصفه به الجهلة الضالون ، من نسبة الأولاد والأنداد والشركاء إليه . تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا .

(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾) .

المفردات :

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : منشئهما ابتداءً ، من غير مثال سبق ، وهو صيغة مبالغة . من بَدَعَهُ ؛ بمعنى : اخترعه .

(أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ) : من أين يكون له ولد . أو كيف يكون له ولد ؟

(صَاحِبَةٌ) : زوجة .

(وَكِيلٌ) : تستعمل هذه الكلمة بمعنى : حفيظ ، وبمعنى : مَنْ يُوكَلُ إليه الأمْر ، ومن يتولاه . . وكلٌّ تصح إرادته هنا .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) : إدراك الشيء ؛ الوصول إليه ، والإحاطة به .

(الْأَبْصَارُ) : جمع بصر . وهو حاسَّة النظر . وقد يطلق على العين ، لأنها محلٌّ النظر والإبصار .

(اللَّطِيفُ) : العليمُ بدقائق الأُمور وخوافيها . وقد يراد منه : المحسن . وهو المناسب هنا لإفادته معنى جديدا .

أما المعنى الأَول فهو داخلٌ فى عموم معنى الخبير . إذ معناه : العليم بالظواهر والخوافى .

التفسير

١٠١ - (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ...) الآية .

المعنى : الله مبدع السَّمَٰوَاتِ والْأَرض ، بلا مثال يحتذيه ولا شريك يُعينه ، فكيف يكون له ولد - كما يزعمون - ولم تكن له زوجةٌ تصاحبه يأْتى منها الولد ؟ !

وخلق كل شيء من الموجودات ، حتى ما زعموه ولدا ، والمخلوق لا يكون ولدا ، وهو بكل شيء عليم . ومن كان كذلك ، فإنه يعلم ما افْتَرَوْه على الله من البنُوَّة وسوف يُجْزَوْنَ على افترائهم أَسْوَأَ الجزاء .

وفى الآية دليل على نَفْيِ الولد عن الله تعالى ، من وجوه :

أَحدها : أَن من مبدعاته : السمواتِ والأَرضَ . ومَن كان كذلك ، لا يصح أَن يكون له ولد . لأَن ما ادعوْه ولدا ، لا يقدر على مثل ذلك . ومِنْ شأْن الولد . أَن يكون قادرا على مثل ما يقدر عليه أَبوه .

ثانيها : أَن مِنْ شأْن الولدِ أَن يتولَّد من ذكر وأُنثى متجانسين . والله تعالى ، منزه عن المجانسة والمشابهة ، فلهذا ، لا تكون له زوجة يأْتى منها الولد .

ثالثها : أَن الولد الذى ادعوه ، مخلوقٌ لله تعالى . فقد خلق - سبحانه - كلَّ شيء وهو من جملته . والمخلوق لا يكون ولدًا للخالق ، ولا يسمى به بل يسمى مخلوقا .

رابعها : أَن الولد يشبه أَباه ، والله بكل شيء عليم . فى حين أَن ما ادَّعوه ولدا ، ليس كذلك . فلا يصلح أَن يكون ولدًا لله . لأَنه فقد صفته ، وهى العلم بكلِّ شيء .

١٠٢ - (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) :

أى : ذلكم الموصوف بهذه الصفات الجليلة . هو الله المستحق وحده للعبادة .

(رَبُّكُمْ) :

أى : مالك أُموركم دون غيره .

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) :

أى : لا معبود - بحق - سواه .

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) :

أى : ما كان منه وما سيكون . فلا يصلح - سواه - أن يكون ولدا له ، يُعبدُ معه . ويقدس تقديسه ، لعدم مشابهته له تعالى ، فى تلك الصفات . فإن مِنْ شأْن الولد أن يشبه أباه فى صفاته .

وإذا كان الأمر كذلك . فاعبدوا الله وحده - غير مشركين به ، ولا متخذين له ولدا . والله - مع كل هذه الصفات الجليلة - وكيل ، أى متولٍّ أمورَ خلقه ، قوامٌ عليها . يحفظها من الخلل بعد أن منحها أسباب الوجود . فلا يصلح غيره أن يُعبدَ معه ، أو أن يكون له ولد .

١٠٣ - (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

إدراك الشىء : الوصول إليه والإحاطة به .

ولهذا يقول سعيد بن المسيب فى معنى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) : لا تَصل إليه الْأَبْصارُ ولاتحيط به .

ومعنى الآية مجتمعة : لا تَصِل إلى الله الأَبصارُ ولا تحيط به . والله هو الذى يحيط بالأَبصار ، ويعلم دقائقها وخفاياها . وهو الرفيق بعباده ، المحسن إليهم ، العليم بظواهر الأُمور وخوافيها .

وقد استدل المعتزلة بالآية الكريمة ، على امتناع رؤية البشر لله تعالى .

ولا حجة لهم فيها .

إذ ليس الإدراك مطلقَ الرؤْية ، حتى يكون نفيه نفيا لها ، بل هو رؤْيةٌ مع شمول وإحاطة . وذلك هو المنفى ، فلا مانع من الرؤية لله - دون إحاطة وشمول - مع نفى الكيف عنها ، فإن الرؤية غير منفية ، إذ نفى الخاص ، ليس نفيًا للعام .

ولا مانع من أن يخلق الله فى البصر قوة غير عادية ، يمكن بها رؤية البارئ سبحانه وتعالى ، بدون مستلزمات رؤْية الحوادث .

وقد صحَّ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ : لا تضامُّون فى رُؤْيَتِهِ . . . »[1] الحديث .

(قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾) .

المفـردات :

(بَصَآئِرُ) : جمع بصيرة ، وهى : النور الذى تبصر به النفس والقلب . أما البصر : فهو نور العين .

وأُطلقت البصائر على آيات القرآن ، تشبيها لها بها ، فى إظهار الحق .

(١) أخرجه البخارى وغيره .

(نُصَرِّفُ الْآيَاتِ): نبينها، أو ننقلها من نوع إلى نوع. مأْخوذ من الصرف، وهو: نقل الشيء من حال إلى حال.

(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ): اللام فى (لِيَقُولُوا) لام الأمر. وقد كسرت. وتؤيده قراءة أُخرى بإسكانها.

(دَرَسْتَ) : تَعَلَّمْتَ.

(حَفِيظًا) : حارسا. من حَفِظَهُ بمعنى : حرَسَه.

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) : أى : لست وكيلا فى أمر جزائهم. فدعهم إلى الله.

التفسير

١٠٤ - (قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) الآية.

قد جاءكم أنوارٌ لقلوبكم من مالك أمركم ومربيكم. وتنبعث هذه الأنوار من آيات القرآن الذى أنزله إليكم. فَمَنْ رأى الحق ببصيرته فى ضوئها، فاهتدى إليه، وآمن به - فنَفْع ذلك راجع لنفسه، عائد عليها. إذ أنه - بذلك - ينجو من العقاب، وينعم فى جنات النعيم. ومَنْ تعامى عن الحق يحاول أن يبصره فى ضوئها - فضلّ وكفر - فضرر ذلك عائد على نفسه، راجع إليها. إذ أنه سيعاقَب بالخلود فى النار.

(وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) :

أى : يحفظكم من الضلال، ويمنعكم من الغواية. فلم يكلفنى الله بذلك. وإنما كلفنى بالتبليغ والإنذار. وقد فعلت.

١٠٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

ومثل ذلك التبيين والتنويع. نبيّن وننوع الآياتِ القرآنيةَ الكاشفة عن الحق لنلزم المعارضين الحجة.

ولا عليك يامحمد، أن يفتروا الكذب، ويقولوا : دَرَسْتَ كُتُبَ أهل الكتاب وأنشأْتَ منها هذا القرآن. ولكى نبينه لقوم يتصفون بالعلم والفهم - نُصَرِّف آياتِهِ فينتفعوا بهداه، ويؤمنوا برسوله، دون جدال بالباطل.

وجملة : (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) : جملة طلبية كما بَيَّناه فى المفردات.وقد جاءت معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، للمسارعة إلى تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم ، عن معارضتهم .

فإن المراد منها : أَلَّا يَعْتَدَّ بما يقولون من الأَكاذيب . فقد زعموا : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، درس على أَهل الكتاب ، وتَعلَّمَ منهم ، وأَلَّف القرآن ، وفقًا لما أَخذه عنهم . مع أَنِ مكة خالية من أَهل الكتاب ، ولم يَلْقَ صلى الله عليه وسلم أَحدا منهم فيها ، ولا فى غيرها ، كما أنه عليه السلام أُمِّىٌّ . والقرآن فوق طاقة البشر جميعا . ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فبذلك تكون دعواهم ظاهرة البطلان ، ولا تستحق أَن يبالى بها النبى صلى الله عليه وسلم .

(وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(١) :

والمعنى ولنبيِّن أَنه قرآن من عند الله لمن يعلَمون ذلك حق العلم من أَهل الكتاب - لنلزمهم الحجة ، ولعلهم يرشدون .

١٠٦ - (اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

اتبع ما يوحى إليك من ربك ، اعتقادًا وقولًا وعملًا . وأَعرض عن أَقوال المشركين . ولا تبالِ بِافترائهم وتكذيبهم . وامضِ فى تبليغهم ما أَوحيناه إليك .

١٠٧ - (وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

ولو أَراد الله عدم إشراكهم ما أَشركوا ، بأَن يحملهمْ على الهدى ، ويلجئهم إلى الإيمان ولكنه تركهم لما يدور عليه أَمر التكليف وهو الاختيار .

ولمّا تركهم لا ختيارهم ، لم يحسنوا الانتفاع بآياته ، فتخلى عن معونتهم .

(وَمَا جَعَلْنَاكَ) : يامحمد (عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) : قَيِّمًا وحارسًا ، يحفظهم من الشرك ، حتى تؤاخذ بشركهم .

(١) هذه الجملة معطوفة على مقدر . أى نصرف الآيات لنلزمهم الحجة ، (ولنبينه لقوم يعلمون) وجملة (وليقولوا درست) معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

أى : عنَّا فى أمر جزائهم فدع أمرهم لنا . فنحن أعلم . بأعمالهم وأقدر على جزائهم . ولا تشغل نفسكَ بغير تبليغهم . « .. إنْ عَلَيْكَ إلَّا الْبَلَاغُ .. »[1] .

(وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾) .

المفردات :

(وَلَا تَسُبُّوا) : السَّب ؛ الشَّتم .

(عَدْوًا) : اعتداءً وتَجاوُزا للحق .

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى بقدر جهدهم وطاقتهم فى أيمانهم .

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ) : ونُحَوِّلُ قلوبَهُم .

(يَعْمَهُونَ) : يَتَحَيَّرُونَ .

التفسير

١٠٨ – (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ..) الآية .

---

(١) الشورى ، من الآية : ٤٨

سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن المسلمين كانوا يَسُبُّون آلهةَ المشركين ، ويذكرون قبائحها . فنهوا عن ذلك؛ لئلا يستتبع سبهم لها ، أن يفعل المشركون مثله ، فى حق الله تعالى .

وقال ابن عباس : قالت قريش لأبى طالب : إما أن تَنْهَى محمدا وأصحابه عن سَبٍّ آلهتنا والغض منها ، وإما أن نسُبَّ إلٰهه ونَهْجُوَهُ . فنزلت الآية .

والخطاب فى قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا) للمؤمنين .

والمعنى : ولا تسبوا الآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، فيسبَّ المشركون الله تعالى : اعتداءً وتجاوزا للحق ، بغير علم منهم بما يجب له سبحانه – من التعظيم والإجلال.

والتعبير عن الأصنام بكلمة : (الَّذِينَ) مع أنها لا تعقل ، مجاراة لأُسلوب معتقديها [(١)] . وحكم هذه الآية باق .

فمتى كان الكافر فى مَنَعَة ، وخِيفَ أن يسبَّ الإسلام – أو النبيَّ صلى الله عليه وسلم أو الله عز وجل – فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم . أو يتعرض إلى مايؤدى إلى ذلك . لأنه بمنزلة البعْث على المعصية . وفى الآية دليل على وجوب سدّ الذرائع . إ هـ من القرطبى .

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) :

ومثلما زينا لهؤلاء عملهم القبيح ، زينَّا لكل أُمَّة عملهم من الخير والشر .

قال ابن عباس : زينا لأَهل الطاعة الطاعة ، ولأَهل الكفر الكفر .

والمراد من تزيين الله الأَعمال لكل أُمة : أن يخلق الأَسباب التى تجعل أعمالهم محببة إلى نفوسهم . فيتقبل كل منهم – باختياره – على مايوافق ميله وهواه : من طاعة أَو معصية . ولذا نسب العمل إليهم فى قوله سبحانه .

---

(١) ومن المفسرين من قدر مضافا ، مراعاة لأن كلمة (الذين) لا تستعمل – غالبا – إلا فى العقلاء . أى ولا تسبوا آلهة الذين يدعون . وفيه تكلف . وقال أبو السعود : ولا تشتموا الذين يعبدون آلهة من دون الله – من حيث عبادتهم لآلهتهم – كأن تقولوا : تبا لكم ولما تعبدون . وما ذكرناه فى الشرح ، هو اختيار القرطبى .

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

ثم إلى مالك أمرهم رجوعهم بالبعث بعد الموت . فيخبرهم ويجزيهم بما كانوا يعملونه باختيارهم : من طاعة أو معصية . وفقا لما تأثرت به نفوسهم ، وكسبته أيديهم من دواعى هذه الأعمال .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الأعمال تظهر لبعض الناس فى الدنيا بغير صورتها الحقيقية : التي تكون لها فى الآخرة .

فالكفر والمعاصى - مع كونها سموما قبيحة قاتلة ، شائهة - تبدو فى الدنيا ، بصورة تستحسنها نفوس الكفرة والعصاة .

والإيمان والطاعات ، تظهر لديهم فيها على العكس من ذلك .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالْمَكَارِهِ . وُحفَّتِ النارُ بالشَّهَوَاتِ » . فإذا بعثوا يوم القيامة عَرَّفهم الله الأعمال بحقائقها ، وجزاهم على تقصيرهم . وهذا هو قوله سبحانه : (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

١٠٩ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا . . .) الآية .

سبب نزولها - على ماذكره القُرَطِىُّ وغيره - أن قريشا قالت : يامحمد ، تخبرنا أن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . وأن عيسى كان يُحْيِي الموتى وأن ثمود كانت لهم ناقة .. فائتنا ببعض هذه الآيات حتى نُصدقك . فقال : « أىُّ شىء تحبون » ؟ قالوا : اجعل لنا الصفا ذهبا . فوالله ، إن فعلت لنتبعنك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو . فجاءه جبريل فقال : « إن شِئْتَ أَصبح ذهبا : ولئن أرسل الله آية ولم يصدقوا عندها ، ليعذبنهم ، فاتركهم حتى يتوبَ تائبهم .. » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل يتوب تائبهم » فنزلت هذه الآية . وجَهْدُ اليمين : أَشَدُّها ، وغايتها التى بلغها علمهم ، وانتهت إليها طاقتهم وقدرتهم .

وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإلـه الأعظم . وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ، ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى . كما أخبر الله عنهم بقوله :

« ... مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » [(١)].

وكانوا يحلفون بالأصنام والآباء وغير ذلك .

وكانوا إذا حلفوا بالله سموه جهد اليمين . ذكر ذلك القرطبى .

والمعنى : وأقسموا بالله – جاهدين فى أيمانهم ، بالغين فيها غاية الطاقة – لئن جاءتهم معجزة كونية من جنس آيات المرسلين السابقين ، ليؤمنن بها . .

ولا ريب أن طلبهم هذه الآيات ، ناشىء عن تماديهم فى العناد ، فإن القرآن : هو الآية العلمية التى تخضع لها شم الجبال ، وتلين لها الصخور .

وكان عليهم – لو كانوا طلاب حق – أن يؤمنوا بها ، ويقفوا عند حدودها .

فكيف وقد انضم إليها عديد من المعجزات الكونية : كانشقاق القمر ، وحنين الجذع ، وتَنَبُّع الماء من بين أصابعه الشريفة ، ونزول المطر ، ورفعه ؛ بدعائه صلى الله عليه وسلم .

ولهذا ، لم يستجب الله لما طلبوا ، وأمر نبيَّهُ أن يغلق باب اقتراح الآيات . فقال :

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المقترحين : إنما الآيات عند الله ، فهو صاحب المشيئة والأمر فى شأنها : يتصرف فيها كما يريد حسب حكمته البالغة . وليس لأحد مشيئة فيها ولا قدرة عليها حتى يمكننى أن أحققها لكم بأى وجه من الوجوه. وقد حقق لكم من الآيات ما ينبغى لتأييد رسالتى . فسؤالكم آيات أخرى ، ما هو إلا مكابرة وعناد .

---

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٣

وصدق الله إذ يقول : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . .»[1] .

ثم خاطب الله المسلمين : مبينا الحكمة فى عدم تحقيق مطالبهم ، التى أشار إليها هذا الجواب . فقال تعالى :

(وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : وما يعلمكم ـ أيها المؤمنون ـ أن الآيات التى طلبها المشركون ـ إذا جاءت ـ كما طلبوا ـ لا يؤمنون بما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وقد بين الله ـ بهذه الجملة ـ أن أَيْمَانُهم فاجرةٌ . وأنهم لا يؤمنون إذا حُقِّق لهم ما طلبوه .

وإنما خاطب الله المسلمين بقوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) ؛ لأنهم تَمَنَّوْا تحقيقها ومجيئها ، طمعا فى إيمانهم .

وكأن الله تعالى ، يقول لهم : أنتم لا تعلمون أنهم لا يؤمنون بعد مجيئها . فلذلك تمنيتم تحقيقها ، طمعًا فى إيمانهم . فكأن الله تعالى ـ إذ يقول ـ يبسط عذر المسلمين فى تمنيهم .

١١٠ ـ (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...) الآية .

معطوف على قوله : (لَا يُؤْمِنُونَ) داخل معه فى حكم ما يشعركم مقيَّدٌ بما قُيد به

والمعنى : وما يشعركم أيها المؤمنون ، أننا نقلب ونحول قلوبهم عن الحق فلا يعرفونه . ونقلب كذلك أبصارهم عن معالمه فلا يبصرونه ، ولا يؤمنون به . كما لم يؤمنوا به أول مرة حينما جاءهم القرآن ، والآيات السابقة . ونحن نتركهم فى طغيانهم يتحيرون ، فلا يهتدون لفساد طويتهم .

وقد دلّ قوله تعالى : (وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) على أن تقليبه تعالى لأفئدتهم وأبصارهم ـ ليس بطريق الإجبار والقهر ـ مع توجههم إلى الحق ـ بل بأن يُخلِّيَهم وما انطوت عليه نفوسهم من الطغيان ، ونعوذ بالله من ذلك .

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٥١



١٥